B. توسع الشرق الادنى الاسيوى وارينته
اى تحويله الى الارية

I. التوسع العام للآريين الأولين

١ ـ الآريون في العالم الشرقي

لقد أعطينا صورة في مقدمة هذا الكتاب عن الطباع العامة التي تميز الآريين الأولين وعاداتهم الاجتماعية والدينية وتنظيمهم السياسي والاجتماعي. كما عرضنا الوضع الحالي للمعلومات التاريخية حول اسمهم وعرقهم ولغتهم وموطنهم الأصلي وحاولنا إبراز الطباع الخاصة التي تميزهم عن منافسيهم الجنوبيين، ساميي الهضبة العربية البدو.

وسنتابع الآن التوسع العام لتلك الشعوب الشمالية واستقرارها في بلدان الشرق الأدنى الآسيوي (آسيا الصغرى، أرمينيا، إيران)، ويقظة شعوب تلك البلدان وأرينتها (تحولها الى الآرية)، وامتدادها نحو الجنوب باتجاه الهلال الخصيب ووادي النيل[1].

أ ـ الغزوات الآرية في الألف الثاني تتفوق على هجرات الساميين البدو الآتين من الجزيرة العربية

إن الألف الرابع الذي، كما نعلم، رأى الشرق المتوسطي يخلع عن نفسه شرنقته النيوليتية يمثل في حوالي نهايته المرحلة الانتقالية للتاريخ الشرقي. إن شعوب تلك المرحلة في هذه المنطقة وقد تحضرت منذ عهد قريب وامتزجت بعناصر سامية

(١) سوف نستخدم في هذه الدراسة تعبيري «شماليين» و«سكان البلدان الشمالية» في معنيين مختلفين. فبكلمة «شماليين» نعني الشعوب أو القبائل ذات الأصل الآري، الهندو ـ أوروبي أو الأسياني التي انهمرت من المناطق الأوراسية أو الروسية ـ السيبيرية. أما تعبير «سكان البلدان الشمالية» فنستعمله للإشارة إلى سكان البلدان الواقعة شمال الشرق المتوسطي، أي آسيا الصغرى وأرمينيا وإيران، سواء أكانوا آريين أو آسيانيين أو هندو ـ أوروبيين.

وآسيانية قدمت حديثاً، بدأت تصحو على الحضارة وهي بالكاد مستنيرة على الضوء الخافت للتاريخ الناشىء.

الألف الثالث والذي يشكل مطلعه بداية التاريخ الشرقي المؤكدة فهو الحقبة التي تكوّن فيها، إثر الهجرات التاريخية السامية الأولى من الهضبة العربية، العالم السامي في الهلال الخصيب واستقر خلاله عرقياً وثقافياً ولغوياً الشكل العام لعالم الشرق السامي ـ المصري، والذي سوف يظل ثابتاً بعد ذلك التاريخ.

وأما في الألف الثاني الذي نبدأ به الآن فإن مجموعات جديدة من الغزاة، وهم شماليون يسمون آريين، جذبت بدورها نحو مناطق الجنوب الغنية والمشمسة. وكنا قد رأينا في الألف الثالث الأسيانيين البرابرة والساميين البدو يقوضون، على فترات شبه منتظمة، محاولات إنشاء الأمبراطوريات التي كان يقوم بها حضر بلاد ما بين النهرين. وإن الساميين الأكاديين حوالي العام ٢٧٢٥ دمروا أمبراطورية مدينة أوروك السومرية، والأسيانيون الغوتيون دمروا بدورهم حوالي العام ٢٥٤٣ أمبراطورية مدينة أغاده السامية. وأما الساميون والأموريون فقد قلبوا بعد العام ٢٤٠٠ أمبراطورية أور الثالثة السومرية وأعدوا لقيام امبراطورية حمورابي وبابل السامية حوالي العام ٢٠٠٠.

وبدءاً من العام ١٨٠٠، تسارعت وتيرة الغزوات الشمالية في حين خف تواتر الهجرات السامية. ففضلاً عن الجبليين الأسيانيين المقيمين في هضاب الأناضول وإيران إستقر منذ فترة قصيرة آريون أو هندو ـ أوروبيون في آسيا الصغرى وأرمينيا وإيران تحت أسماء الحثيين والكاسيين والميتانيين والميدو ـ فرس إلخ... وسوف يبدأون غاراتهم على الحضر المَهرة في الهلال الخصيب ووادي النيل. من جهة أخرى فإن الآراميين والعبرانيين وسواهم من الساميين الرحل الذين يجوبون الصحراء السورية العربية سينقضون بدورهم على الفريسة الحضرية.

وبدءاً من هذا العصر فإن الشماليين والساميين أو الجبليين والبدو فضلاً عن الشعوب الحضرية وقد أغرتهم جميعاً المغانم أو بدافع حاجاتهم الدفاعية سوف ينحدرون من الشمال أو يتدفقون من الشرق أو الجنوب. وسيكونون غالباً على نزاع فيما بينهم، في آن واحد أو بالتناوب، في العالم الشرقي طوال القرون العديدة المقبلة.

ويمكننا القول بشكل عام أنه وفي الألف الثالث كان الشرق المتوسطي خسر صفا منطقة مغربة لساميي الهضبة العربية البدو الباحثين عن أراض خصبة

ومواقع مثمرة. أما في الألف الثاني فالعالم الشرقي سيكون محط أطماع المجموعات الشمالية وفي الوقت نفسه حقل معارك واسعة لكل الأعراق.

ب ـ صورة عامة عن الهجرات الآرية

في الألف الثالث وفي حين كانت الحضارات التاريخية في الشرق المتوسطي الأخذ في الجفاف قد بلغت عهد نضوجها، حدث تغير مناخي في أقصى الشمال أدى الى ذوبان الثلوج مما نتج عنه فيضانات ضخمة حركت وطردت من السهول الأوراسية الباردة عرقاً من النيوليتيين الأصليين هم الأريا الذين كانوا مستغرقين فيها منذ آلاف السنين.

وبدءاً من منتصف الألف الثالث بدأت هذه المجموعات البشرية المنتشرة على مساحة أوسع وبكثافة أكبر من مجموعات الهضبة العربية بإطلاق موجاتها نحو الجنوب بشكل شبه دوري. إن طلائع تلك الأسرة البدائية الكبيرة، وفي بحثها هي أيضاً، عن البلدان الغنية والمشمسة سوف تبلغ بلدان الشرق حوالي العام ٢٠٠٠ أي بعد مرور ١٥٠٠ سنة على الموجة الأولى للتوسع السامي ما قبل التاريخ والتي أطلقت حوالي العام ٣٥٠٠. إن تلك الجماعات الشمالية المتحركة، المؤلفة من مجموعات أسر وقبائل نصف بربرية وجاهلة الكتابة، سوف تهاجم بعد ذلك التاريخ العالم الشرقي. وسوف تتنافس مع الحضر وبدو الجنوب للإستيلاء على ثروات الهلال الخصيب ووادي النيل.

وبدءاً من هذا العصر وبتواصل شبه دوري كانت موجاتهم المضطربة والمقترنة أحياناً بموجات بدو الجزيرة العربية تقوض بلا انقطاع جهود الحضر الشرقيين البناءة.

«إننا نفهم طمع الآريين لدى وصولهم على مشارف الأراضي التي أخصبتها المهارة البشرية والمدن الغاصة بالمؤن والمعادن الثمينة والمنتجات التي تصنعها محترفات السومريين والساميين أو التي تنقلها القوافل والسفن من قلب جزيرة العرب ومصر وقبرص وكريت. وخلال ألف سنة يمكننا أن نتعرف على هجوم المهاجرين ومقاومة السكان المدافعين من خلال وجود طبقات رماد وركام توحي بالحرائق والخراب والنهب والحروب المتكررة باستمرار في كل المنطقة الممتدة من الأناضول وحتى أمورو ـ سوباروه (شمال سورية)[2].

2 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 413.

وبخلاف الموجات السامية التي بصعودها من الجنوب واستخدامها معظم الأحيان الطريق نفسها تبدو آتية من مركز انطلاق واحد، فإن الموجات الآرية التي صبتها الطبقة البشرية الشمالية الشاسعة كانت تنزل في موجات متوازية على جبهة جد واسعة تترامى من إيران وتركستان حتى شبه جزيرة البلقان وبحر البلطيق أيضاً. وهذا الشلال البشري الضخم يعطي فكرة عن وفرة عدد هذه المجموعة البشرية والمساحة الكبيرة للخزان الذي كان يغذيها.

وعلى غرار موجات الساميين البدو فإن هجرات المجموعات المختلفة الآرية تتضمن تحركات على درجات عديدة وممتدة على قرون عدة. فحوالي العام ٢٠٠٠ بلغت قبائل من هذا العرق آسيا الصغرى الغربية وجزر إيجه والبلقان. وغطت قبائل أخرى آسيا الصغرى الشرقية وأرمينيا وغرب إيران كما أن قبائل أخرى وبعد توقف في تركستان استقرت في إيران.

وعلى جانبي الشرق الأدنى الآسيوي استمرت الموجات الآرية بالنزول. وحوالي العام ١٥٠٠، بلغ قسم من آريي إيران الهندوس بينما انفصل، صوب الغرب، الآخيون وهم اليونانيون الأول عن المجموعة البلقانية ووصلوا حوالي العام ١٤٠٠ الى شبه الجزيرة الهللينية. وبعدها غطت موجات آرية أخرى كل أوروبا الوسطى والغربية.

٢ ـ آسيا الصغرى ـ أرمينيا ـ إيران ـ تصبح آرية

وهكذا فمن الهند الى أوروبا الأطلسية بما فيها الشرق الأدنى الشمالي أو الآسيوي أو شرق الهضبات (آسيا الصغرى، أرمينيا، إيران) فإن السكان الأصليين وقعوا تحت سيطرة هؤلاء المجتاحين الشماليين وتحولوا في لغتهم الى الآرية. من هنا جاء اسم الهندو ـ أوروبيين الذي يطلق اليوم على شعوب تلك المساحة الواسعة من البلدان.

وحده الشرق المتوسطي، شرق الواحات دافع عن نفسه طوال الألف الثاني ضد هجمة الغزو الشمالي وقاوم بعناد الآريانية. وحتى عندما هزم لاحقاً ووقع تحت سيطرة الفرس والإغريق والرومان لم تضعف مقاومته ولم تطبّع ثقافته بل استمرت لغاته وثقافاته الخاصة به. فكان يحافظ على اللغات والثقافات السامية ـ الحامية بعناية الى جانب لغات وثقافات أسياده الهندو ـ أوروبيين.

ولندع جانباً آريي الهندوس والغرب إذ أن مصيرهم متصل بتاريخ الهند وأوروبا ما قبل التاريخ، ولنتبع تطور الآريين الذين استقروا في الشرق الأدنى الآسيوي أي في آسيا الصغرى وأرمينيا وإيران والتي يرتبط تاريخها منذ تلك المرحلة البعيدة بتاريخ الشرق المتوسطي.

من الخطأ الاعتقاد بأن المجتاحين الآريين أبادوا أو طردوا السكان الأصليين من المناطق التي اجتاحوها وحلوا محلهم. وتماماً كما كوّن بدو الهضبة العربية الساميون لدى امتزاجهم بحضر الهلال الخصيب غير الساميين الشعوب الأكادية والكنعانية والفينيقية والأمورية والبابلية والأشورية ولاحقاً الكلدانية والآرامية والعبرانية والإسرائيلية والنبطية والعربية إلخ... وهكذا فإن الآريين البدائيين الآتين من السهول الشمالية سيكوّنون باندماجهم مع الآسيانيين والمتوسطيين الأصليين مجموعات خلاسية هندو ـ أوروبية اللغة. وعندما استقرت هذه المجموعات في هضاب آسيا الصغرى وأرمينيا وإيران وإندمجت مع سكان تلك البلاد الأصليين شكلت شعوباً خليطة ستحتل مكانة مرموقة في تاريخ الشرق المتوسطي القديم بعدما نشطت بفعل التطعيم الآري. وأما أشهر ممثليها فسيكونون الشعوب الحثية والكاسية والمبتانية ـ الحورية وبعدها الفرس ـ الماديين والآخيين أو اليونانيين الأولين والهللينيين أو اليونانيين واللاتين والرومان إلخ...

أ ـ الحثيون أو الخطيون في آسيا الصغرى

إن مجموعات من الآريين هم الحثيون العتيدون وصلت الى آسيا الصغرى بعد العام ٢٠٠٠ قادمة من الشمال الغربي وغطت شبه الجزيرة تلك بأكملها. ولا يمكننا تحديد الطريق التي سلكوها غير أنه بوسعنا توقيت تاريخ نزوحهم مع التدمير الثاني الذي تعرضت له حوالي العام ٢٠٠٠ مدينة طروادة التي تحرس الدردنيل. إن طروادة وككل القلاع القديمة والواقعة على الطرق الكبرى للغزو سوف تدمر ويعاد بناؤها ثماني مرات قبل أن تصبح المدينة الهوميرية.

وأما في آسيا الصغرى وأرمينيا، فإن الحثيين العتيدين قد سيطروا على السكان الأصليين. كان مركزهم السياسي منطقة الأناضول الداخلية، الكبادوك أيام اليونان. وهناك أيضاً سيستقر الأتراك السلاجقة العتيدون وحكومة الجمهورية التركية الحالية. وكان السكان الأصليون الذين سيطر عليهم الآريون البدائيون في آسيا الصغرى من الآسيانيين أو الألبيين يدعون بالخطيين تيمناً باسم مدينة خطي

(بوغازكوي) شمال شرق أنقره حيث عثر أخيراً على محفوظات الدولة الخطية القديمة.

وأما التسمية الحديثة حثي (من حث) فهي الاسم الذي تطلقه التوراة على الكلمة الأسيانية خطي. فالحثيون أو الخطيون الذين سنتابع تطورهم في آسيا الصغرى بدءاً من العام ٢٠٠٠ سموا كذلك نسبة الى السكان الأصليين في الأناضول الوسطى.

وكانت هناك لغتان مستخدمتان في البلاد الأناضولية إحداهما هندو ـ أوروبية هي النازيلي والثانية آسيانية هي الخاطيلي. وكانت تنتمي الى هاتين اللغتين عاميات عديدة هندو ـ أوروبية وآسيانية. وأما اللغة والكتابة السامية ـ الأكادية فكانتا مستخدمتين أيضاً كما تشهد على ذلك لوحات متعددة اللغات. ونحن نعلم أنه ومنذ سرجون (حوالي ٢٧٠٠) كانت هناك جالية لا بأس بها من تجار ما بين النهرين الساميين المقيمين في الكبادوك، وأن الأشوريين كانوا مسيطرين على المنطقة عند وصول الآريين. وفيما بعد حلت اللغات العامية الآرية ـ الهللينية في آسيا الصغرى محل اللغات الشقيقة التي أتى بها الحثيون. ثم وأخيراً جاءت اللغة التركية التي أتى بها مجتاحون من آسيا الوسطى لتمحو اللغة اليونانية.

وهكذا وبفضل التحليل للغات العامية فإن حثي آسيا الصغرى يظهرون لنا كشعب غير متجانس مؤلف من مجموعات عرقية متميزة ستمتزج لاحقاً، وأهم هذه المجموعات هي الآسيانية الأصلية.

«إن تأكيد هذا المزيج العرقي بادٍ بوضوح على المباني العائدة الى الألف الثاني والتي نقشت عليها أشكال بشرية: فقسم من السكان ليسوا من النموذج الهندو ـ أوروبي بل يتميزون برؤوس قصيرة جداً وأنف طويل ومعقوف مع جبهة وذقن مائلين. إن هذا النموذج «الكبير الأنف» الذي يصفه فون لوشان بالأرمنازي هو «على الأرجح نموذج سكان آسيا الصغرى الأصليين بالدرجة الأولى وهم الخطيون. كما أننا نجد هذا النموذج ذا الأنف الكبير في سوريا وفلسطين وبلاد ما بين النهرين وأرمينيا وبلاد فارس. ولاحقاً فإن شعوباً أخرى سوف تظهر في هذه المناطق وتختلط مع العرق ذي الأنف الكبير. وهكذا يتكلم هذا العرق كما كان يتكلم منذ أقدم العصور اللغات المتنوعة». إذن فمن سمات النموذج العرقي يعرف الحثيون الأصليون والذين يعرفون في الواقع بالخطيين»[٣].

3 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 416, 418.

وحوض الهندوس وتاريخها لا يدخل في اطار دراستنا.

٣ ـ الشرق المتوسطي القديم والشرق الآسيوي الحديث. ومصير كل منهما بدءاً من العام ٢٠٠٠.

حوالي العام ١٨٠٠ انتهت المرحلة الأولى من الهجرات الآرية في العالم الشرقي. وقد تحول الشرق الأدنى الشمالي أو الآسيوي، أو شرق الهضبات أي آسيا الصغرى وأرمينيا وإيران الى الآرية واستقر شكله العرقي واللغوي. قبالة الشرق المتوسطي او السامي-الحامي وفي جواره المباشر سينتصب بدءاً من مطلع الألف الثاني عالم قاري حديث وجديد، شرق آسياني متحول الى الآرية، وسيدخل قريباً مسرح الأحداث. إن هدفه الرئيسي هو السيطرة على الشرق المتوسطي. قبل العام ١٨٠٠، كما رأينا، فإن مجموعات آسيانية كانت قد استقرت داخل الهلال الخصيب ونتيجة الهجرات الآرية الأولى فإن عناصر خطية وحورية من الأناضول شوهدت منذ العام ٢٠٠٠ في سورية وحتى في فلسطين.

إن الشرق الأدنى الآسيوي وهو اصغر من الشرق المتوسطي بأكثر من ألف سنة، والذي لم يخرج من شرنقته النيوليتية بين العام ٢٠٠٠ و١٨٠٠ الا بعد انتشار الآريين الأوائل قد عجّل، منذ يقظته على الحضارة ودخوله التاريخ المعروف، بالانقضاض على شقيقه الأكبر، الأغنى والأكثر تطوراً منه لسلبه أو السيطرة عليه. إن الشرق الآسيوي الجديد واليافع أو شرق الهضبات والذي يشرف على الشرق السامي ـ الحامي القديم أو شرق الواحات، سوف يظل طيلة الألف الثاني، يهاجم جاره الجنوبي. وسيتطلب الأمر ثلاثة عشر قرناً تقريباً (حوالي ٥٢٥) حتى ينجح شرق الهضبات في ظل الهندو ـ أوروبيين الفرس أولاً ثم اليونان والرومان في احتلال اراضي الشرق المتوسطي الخصيبة أو المروية والاستقرار فيها قروناً عديدة.

وهكذا فإن عالمين متجاورين كونتهما وبوتقتهما عوامل جغرافية وعرقية مختلفة سوف يتواجهان بدءاً من مطلع الألف الثاني. فالأمر ليس في الواقع، مواجهة بين أعراق سامية-حامية وأعراق هندية-أوروبية بل بين مجموعتين كبيرتين جغرافيتين متميزتين ومنوعتين وتنتمي كلتاهما الى العالم المتوسطي. الأولى هي المجموعة الجنوبية أو الشرقية ـ الأفريقية التي تمتد من بلاد ما بين النهرين حتى المغرب العربي والثانية هي المجموعة الشمالية الممتدة من إيران حتى شمال إسبانيا.

إن الفرع الجنوبي أو فرع السهول والواحات وهو منطقة يقيم فيها شعب متوسطي امتزج باستمرار بعناصر سامية ـ حامية، سوف يكون دوماً مدموغاً بالطابع السامي أو الصحراوي. وأما الفرع الشمالي أو فرع الهضبات، عالم الآسيانيين الممزوجين بعناصر شمالية وآسيوية، فسوف يؤوي باستمرار شعوباً جبلية ومحاربة متلهفة للسيطرة والتوسع العسكري.

هكذا يلاحظ ج.هـ. بريستد «أن تاريخ العالم القديم... طبع بصراع دهري بين العرق السامي الجنوبي والفرع الشمالي الهندو ـ اوروبي... إن العرقين البشريين الكبيرين يتواجهان على جانبي المتوسط كأنهما جيشان على جبهة متصلة تمتد من آسيا الغربية حتى حدود المحيط الاطلسي. إن الحروب البونية (بين روما وقرطاجة) ليست سوى فصل طويل من هذه الصراعات التي تجري على الجناح السامي الأيسر في حين أن نصر الفرس على الكلدان هو فصل آخر يجري على الجناح الأيمن السامي هو الآخر. وإن نهاية هذا النزاع الدهري جاءت بانتصار جدودنا الهندو أوروبيين التام الذين تغلبوا على الوسط والجانبين وضمنوا لأنفسهم يوناناً ورومانيين سيادة لا منازعة لها بعد ذلك على كل العالم المتوسطي. إن هذا النصر لم يحصل من غير نزاعات داخلية بين مختلف أعضاء الفرع الشمالي. وهناك أيضاً تابع النصر سيره من الشرق إلى الغرب وكان أولاً الفرس ثم الاغريق وأخيراً الرومان هم من اكتسح أمبراطورية العالم المتوسطي والشرقي»[4].

لكن هذا النصر الذي جاء لصالح الهندو-اوروبيين لن يكون نهائياً، فبعد ١٢ قرناً تقريباً من السيادة الشمالية (فرس، يونان، رومان) فإن العالم السامي-الحامي أو الجنوبي سيثأر لنفسه بفعل تعزيزات سامية جديدة. فالعرب سوف يطردون الشماليين ولكنهم لن ينجحوا في ترسيخ جذورهم في الشرق الشمالي أو الآسيوي. وبعد الساميين الفينيقيين وعلى خطاهم سوف يتقدم الساميون العرب حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق). وأما من ناحية الشمال فسوف يتوقف العرب عند سفح جبل طوروس وهو الحدود القديمة للغات السامية. وأما لجهة الشمال الشرقي فإن ايران والمقاطعات الشرقية التي احتلها العرب مؤقتاً فسوف يتقبلون الاسلام ويحتفظون به لكنهم سيرفضون السيادة العربية ولغة العرب مثلما استعاد الشرق الجنوبي لغاته السامية ـ الحامية بعد رحيل الاغريق ـ الرومان.

4 J.H. Breasted, *La conquête de la civilisation*, p. 183, 184.

II. الشماليون في الهلال الخصيب |٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠|

١ ـ في بلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية

أ ـ الميتانيون ـ الحوريون في بلاد ما بين النهرين العليا وسورية الشمالية

كانت شعوب بلاد ما بين النهرين العليا وسورية الشمالية المستقرة بين العاصي ودجلة وعلى غرار آسيا الصغرى تتألف حوالي العام ٢٠٠٠ من مجموعات عرقية غير متجانسة يغلب فيها العرق الآسياني «ذو الأنف الكبير والجبهة المائلة». إن هذا الشعب الآسياني كلغته يحمل إسم الشعب الحوري أو الخوري نسبة الى مدينته الكبرى حوري عند منابع نهر بالخ وهي التي عرفت لاحقاً بقَدَس، وهي مدينة أورفة حالياً. وكان المصريون يسمون هذا البلد، كما رأينا، ريزينو ويسمونه أيضاً باسم سامي هو نهارينا الذي يعني بلد الأنهار. وكان الحوريون يقطعون على حثي آسيا الصغرى الطريق المؤدية الى سورية وبلاد ما بين النهرين.

وحوالي العام ٢٠٠٠ دخل الآريون الميتانيون الذين أشرنا اليهم سابقاً البلاد الحورية عن طريق وادي دجلة. وكأخوانهم الحثيين الأناضوليين فإنهم سادوا على الآسيانيين الأصليين. وإن مركزهم السياسي قد يكون في مدينة نصيبين الحالية عند منابع نهر الخابور رافد الفرات. وقد تكلموا وكتبوا لغة الحوريين الأصليين المحلية مما يدل على أهمية هؤلاء الحوريين. وأما البلاد الحورية (أشور العتيدة) فستسمى أولاً بلاد ميتاني وحوري ولاحقاً بلاد ميتان وحسب وبعدها: خانيغالبات.

ب ـ تفكك الأمبراطورية البابلية (حوالي ١٩٥٠)

بعد عشر سنوات على موت حمورابي، فإن الآريين الكاسيين المقيمين منذ مدة وحزة في جبال زاغروس، طردوا منها لدى دخول ابناء عرقهم من الفرع الهندي

(الميتانيين وسواهم) الى الهضبة الإيرانية. وقد نزلوا بمجموعات كبيرة نحو بلاد بابل لكن الملك سمسويلونا (١٩٦٠ ـ ١٩٢٣) إبن حمورابي وخليفته قام بردّهم. ونجح الكاسيون مع ذلك في البقاء أو التسلل الى سهل بلاد ما بين النهرين حيث شكلوا شيئاً فشيئاً جمهوراً بشرياً كبيراً مؤلفاً من مستوطنين ومرتزقة وعمال وعصابات مسلحة.

وإن الصراع المضني ضد الكاسيين أضعف قوة الامبراطورية البابلية التي انتهت بالتفكك. فإستقلت عنها أشور وأمورو وعيلام وسومر القديمة وتحررت (حوالي ١٩٥٠). إن هذه الأمبراطورية الواسعة والعظيمة التي بناها منذ مدة وجيزة حمورابي بفعل نبوغه المنظم والعسكري عادت الى الحجم الصغير الذي كانت عليه أيام ملوك بابل الأول أي اقتصرت على بلاد أكاد القديمة في وسط ما بين النهرين. وصارت «الأقطار الأربعة» بعد ذلك دولاً مستقلة ومتعادية ولم تعد «ملكية العالم» بالنسبة الى ملوك بابل إلا ذكرى ماضٍ مجيد.

ج ـ بلد البحر او سومر القديمة (حوالي ١٩٥٠)

ان الخسارة التي كانت الكارثة الأكبر على مملكة بابل والتي عطلت حياتها الاقتصادية كانت ناتجة عن تحرر المناطق البحرية في الخليج العربي أي بلاد سومر القديمة التي كانت تعرف آنذاك «ببلد البحر»... ونحن نعرف من جهة أخرى أن ما أسهم في انهيار مدن سومر نحو ذلك العصر هو عزلتها عن الخليج العربي بفعل الطمى المتزايدة التي كان يحملها فيض مياه النهرين خلال الألف الثالث. وإن تلك العوامل نفسها أنشأت منطقة مستنقعات كبيرة، إكتسبت من البحر وهي مغطاة بالقصب وتحميها شبكة القنوات حيث كان يختبىء المتمردون وأواخر العصاة السومريين.

يومها قام متمرد يدعى إيليمايلوم زعم أنه من سلالة آخر ملك سومري من المدينة الملكية إيزين ومشى على رأس المتمردين والسومريين الملتجئين الى أجمات أو أدغال بلد البحر وأعلن نفسه ملكاً. ثم هاجم ملك بابل الذي كان يومها يتلقى ضربات الموجات الشمالية وانتزع منه كل بلاد سومر القديمة أو بلاد ما بين النهرين السفلى فضلاً عن مدينة نيبور المقدسة وأسس سلالة بلد البحر الملكية (حوالي ١٩٥٠).

وبعد نحو ربع قرن قام ساميو أمورو (الخابيرو أو الآراميون؟)، مستفيدين من

الفوضى العامة، بالظهور من جديد في الفرات الأوسط وهاجموا بابل التي صدتهم (حوالي ١٩٢٤). «وظل خلفاء سامسلويلونا متمسكين بشدة بالسلطة لأكثر من قرن ولكن كل جهودهم لاستعادة زمام السلطة ضاعت سدى. وحاول أبيشوع (١٩٢٢-١٨٩٥) تحويل مجرى نهر دجلة لتجفيف مستنقعات بلد البحر ومحاولة دخولها ولكن لا هو ولا خلفاؤه نجحوا في إستعادة السيطرة على سومر. وبقيت حدود مملكة بابل مقتصرة على حدود منطقة أكاد القديمة»[٥].

د ـ الحثيون ينهبون سورية الشمالية وبابل (١٨١٠-١٨٠٦) وملوك بلد البحر يستولون على بابل (١٨٠٥)

وحوالي العام ١٩٠٠، كما رأينا، كانت مناطق الأناضول قد توحدت على يد الآريين النازيتيين. وإن الملك لابارنا الذي وطد هذه الوحدة اعتبر المؤسس الحقيقي لما يسميه المعاصرون: الأمبراطورية الحثية القديمة. وأما إسمه الذي سوف يتناقله خلفاؤه فسيكون لقباً ملكياً كإسم قيصر أو أغسطس عند الرومان.

لقد كان للأمبراطورية الحثية لدى قيامها علاقات سلمية مع مملكة حلب (خالبا) «وهي مدينة أمورية كبرى ومركز تجاري هام في سورية العليا». وأما الملك الكبير الحثي مرسل الأول ثاني خليفة للابارنا فقد لقبه جيرانه «بالملك الكبير» وسماه المصريون «الخيطا الكبير» (الحثي). وقد اجتذبه الجنوب فإجتاز جبال طوروس «وأباد الأسرة الملكية وبلد حلب» (حوالي ١٨١٠) واستولى على كركميش التي فتحت له طريق الفرات. ثم مشى بعدها مرسل الى بابل واستولى عليها «ونهبها ودمرها» ثم عاد بغنائمه الى بلاده خطي (حوالي ١٨٠٦). واستولى على تمثال الإله مردوك كغنيمة حرب لكنه تركها في هانا وهي مدينة حورية خاضعة للحثيين في الفرات الأوسط.

لقد اختصر دمار بابل في خبر وبكلمات موجزة يستشف منها عمق المأساة: «في العام ٣١ من ملك سامسوديتونا جاء الخطو الى أكاد»[٦]. وبعد انسحاب الحثيين أفاد ملوك بلد البحر من الكارثة التي أصابت بابل فاستولوا على تلك العاصمة. وإثر

5 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 424.
6 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 424.

انتصارهم عرضاً وموقتاً على الساميين الأكاديين والأموريين فإن من بقي من السومريين حكموا خلال نصف قرن بلاد ما بين النهرين السفلى والوسطى وأقاموا على عرش حمورابي الذي دمر أمبراطوريتهم وأباد عرقهم، السلالة البابلية الثانية (١٨٠٥ ـ ١٧٥١).

٢ ـ الكاسيون أسياد بابل «١٧٥٠)

أ ـ كسوف بابل.

إن نهب بابل من قبل الحثيين الذي سهل لملوك بلد البحر وضع يدهم على هذه المدينة شجع أيضاً الآريين الكاسيين على محاولتهم من جديد شن هجوم ثانٍ ضد المدينة الكبيرة المنكوبة. وكانوا، كما رأينا، وبعد إجتياح أول لهم العام ١٩٥٠، تصدى له خليفة حمورابي، قد تركوا مجموعة عرقية كبيرة منهم مؤلفة من عمال وصناع وعصابات مسلحة في سهل ما بين النهرين.

وبعد قرنين من محاولة غزوهم الأولى الفاشلة تمكن الكاسيون حوالي العام ١٧٥٠ من أن يطردوا بدورهم ملوك بلد البحر ويحلوا محلهم في السلطة وهكذا أسسوا السلالة البابلية الثالثة.

وكنا رأينا سابقاً أنه وحوالي العام ٢٥٠٠ كان برابرة آخرون هم الغوتيون الآسيانيون المنحدرون من الجبال نفسها، أي جبال زاغروس قد هدموا أمبراطورية سرجون ونارامسين في بلاد ما بين النهرين وسادوا على بلاد النهرين خلال نحو ١٣٢ عاماً.

أما سيطرة الكاسيين فستكون أطول من السيطرة السابقة بكثير بحيث سيحكم نحو ٣٦ ملكاً من هذا العرق طيلة نحو ستة قرون (١٧٥٠ ـ ١١٧٥) ويمحون حتى إسم بابل. وخلافاً للغوتيين الذين تألقت خلال حكمهم الحضارة السومرية في عهد غوديا أمير لاغاش السومري (حوالي ٢٤٥٠)، فإن البرابرة الكاسيين الذين حكموا بابل سيتخذون اسم ملوك كاردونياش وان حكمهم سيكون عهداً طويلاً من الانحطاط.

ب ـ اندحار السيادة السامية في بابل.

وهكذا وبعد نهاية دور بلاد سومر أو بلاد ما بين النهرين السفلى، يكون دور منافستها مدينة بابل أو بلاد ما بين النهرين الوسطى كمركز قوة سياسية كبرى قد انتهى تقريباً. هكذا وبدءاً من العام ١٧٥٠، باستثناء فترتين قصيرتين نسبياً وهي فترة حكم الأمبراطورية البابلية الجديدة أو الكلدانية (٦١٠ ـ ٥٣٩) وفترة حكم الخلفاء العباسيين في بغداد، فإن السيادة السياسية ستنتقل نهائياً من الشرق المتوسطي او شرق الواحات الى الشرق الآسيوي أو شرق الهضاب. وإثر ملوك وشعوب سهول ما بين النهرين سيتوالى بعد ذلك التاريخ بالتناوب أو معاً على سيادة الهلال الخصيب والشرق كله ملوك وشعوب جبلية: الحثيون من الأناضول، الميتانيون والأشوريون من بلاد ما بين النهرين العليا، الفرس ـ الميديون من إيران، أغارقة مقدونيا، رومان ايطاليا، روم وبيزنطيو آسيا الصغرى، أتراك ايرانيون وأناضوليون، شركس وأكراد (مماليك) الخ...

إن تولي الآريين الكاسيين الحكم وما استتبعه من اندثار نهائي لسيادة الساميين البابليين، والأموريين والأكاديين، سيتسبب ببدء حقبة من التخلف في بابل ستدوم قروناً عدة. فبابل نفسها لم تعد سوى مدينة تجارية كبيرة ومعزولة وسط بلد مكبل باقتصاد قبلي أو اقطاعي.

«ان بابل عاصمة الحضارات القديمة التي تألقت في آسيا الأمامية عرفت تحت حكم سلالات نصف بربرية كسوفاً دام نحو ألف سنة. في حين ان مصر... حافظت على نفوذها وتألقها الساحر اللذين بلغا كنعان ونهارينا. وهكذا وبعد أقل من قرن من غزوهم لأمورو وبلاد ما بين النهرين سيدفع الآريون الأسيانيين والساميين (الهكسوس) الى الهجوم على الدلتا المصرية»[٧].

٣ ـ المجتاحون الشماليون في فينيقيا وكنعان (١٧٥٠)

حوالي العصر الذي استقر فيه الآريون الكاسيون في بابل (١٧٥٠) يبدو ان مهاجرين شماليين دخلوا الى فينيقيا ـ كنعان. ان هذا الواقع يؤكده ظهور أسلحة ومنتجات صناعية حوالي ذلك التاريخ في هذه المناطق المتوسطية والتي لا يمكن ان تخص سوى مجموعات اجتماعية اتت من البلدان المجاورة لمناجم المناطق الشمالية.

7 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 425, 426.

«في فينيقيا وكنعان تغيرت من جديد التقنيات الصناعية للخزف والتعدين. . . وأما البرونز الذي تطورت صناعته فقد استخدم في صناعة أسلحة منوعة ورهيبة. ان السيف الذي ظهر بشكلٍ محدود في العصر السابق صار أكثر استخداماً وانتشر الخنجر الذي تنوعت اشكاله. . . وثمة تغييرات طرأت على اقتصاد المدن. . . قلعة بيبلوس التي أهملت جزئياً أصبحت مدينة للآلهة والملوك الأموات وأقام الشعب في جوارها. وأما مدينة مجدو فأعيد تنظيمها. وأريحا تغيرت من جديد. ويبدو أن الأمن لم يكن مستتباً إذ أن عمليات التحصين نشطت بزخم في هذا العصر. إن معظم المدن الفلسطينية أقامت أو عززت دفاعاتها . . . كانت فينيقيا يومها تنعم في ظل عصر من الهدوء جاء إثر عملية ترسب كل هذه الشعوب من جديد، بإزدهار مادي كبير هو، كما يظهر، على أساس ريفي»[٨].

إن الطابع الزراعي للازدهار الفينيقي في ذلك العصر يعود على الأرجح الى تردي النشاط التجاري والبحري في المدن الفينيقية بفعل الغزوات الشمالية. إن تلك الغزوات المتدفقة نحو الجنوب قد قطعت طريق التبادل التجاري الكبيرة مع سورية وبلاد ما بين النهرين وزعزعت الحياة الاقتصادية في المناطق التي مرت فيها. وقد كان للأزمة التي أعقبت ذلك أثرها الكبير على فينيقيا. وقد أصابت بالدرجة الأولى الملاحة والاقتصاد الفينيقيين وسهلت لملاحة جزيرة كريت، والتي يرجع نشاطها في بحر إيجه الى العام ٢٤٠٠، ان تبسط سيطرتها على التجارة البحرية في ذلك العصر.

٤ ـ انطلاقة العالم الكريتي ـ الايجي، جد العالم اليوناني العتيد (نحو ١٧٥٠)

رأينا العالم الشرقي الأول التاريخي يتطور منذ مطلع الألف الثالث في إطار الشرق المتوسطي الجغرافي (الهلال الخصيب ووادي النيل). ثم رأينا بعدها وفي مطلع الألف الثاني قيام وتطور عالم جديد خرج لتوه من غلافه النيوليتي على حدود الشرق المتوسطي الشمالية: وهو عالم الشرق الأدنى الآسيوي المتحول الى الآرية. وسنرى الآن وبدءاً من العام ١٧٥٠ بروز عالم جديد آخر قائم في قلب البحر من جهة الغرب هو العالم الكريتي ـ الايجي. ان هذا العالم الثالث، المتواضع بمساحته ولكن الكبير بامكاناته العتيدة، وهو عالم بحري نشأ في جزيرة، سوف يدخل قريباً بدوره مسرح التاريخ الشرقي. إنه طليعة العالم اليوناني ـ الايجي العتيد ونواة العالم

8 M. Dunand, *op. cit.*, p. 16, 17 et 18.

المتوسطي المقبل وسوف يكون وطن الهللينية القادم والصورة الأولى لأوروبا المعاصرة أو الغرب.

إن البلاسجة او السكان الأوائل الذين عرفوا في البلدان الإيجية هم مزيج من المتوسطيين والآسيانيين. وإن أول دولة قاموا بإنشائها هي دولة كريت (حوالي ٢٥٠٠). وبرزت فيها حضارة متألقة متأثرة بالحضارة المصرية وقد شعت على السواحل اليونانية وعرفت: بالمينوية نسبة الى ملكها الأسطوري مينوس. وهذه الحضارة بلغت أوجها بين العام ١٧٥٠ و١٤٥٠. إن الملاحين الفينيقيين ومنذ منتصف الألف الثالث هم الذين نقلوا الى الكريتيين مناعم حضارة الشرق الذي كان يومها قد بلغ مستوى عالياً من القوة والثقافة. وخلال قرون عديدة فإن الملاحين الفينيقيين والكريتيين سيحافظون على العلاقة بين الشرق والغرب غارفين بملء راحاتهم من آسيا ومصر.

إن كريت، وهي محطة لا بد منها لبحارة القارات الثلاث أمّها منذ القدم عدد كبير من السكان الشجعان. فكانت الدولة الأولى التي تجرأت على تأسيس حضارتها على التجارة البحرية فقط. وحتى ذلك الوقت كانت الملاحة الفينيقية موجهة نحو الشرق القاري: مصر ـ آسيا الأمامية، وتكتفي بالإبحار على شواطئها.

إن انحطاط الملاحة والمرافىء الفينيقية الذي سببته الغزوات الآرية في بلاد ما بين النهرين وسورية الشمالية بعد العام ٢٠٠٠، أتاح للبحارة الكريتيين ان يستأثروا بالسيادة البحرية على بحر إيجه ووسط المتوسط. إن كريت، معتمدة على مصر، ستشكل قوة بحرية حقيقية موجهة نحو آسيا وأوروبا الجنوبية الشرقية. وفي وجه اقتصاد كان حتى ذلك الوقت قارياً أرست أسس اقتصاد جديد مركز على البحر. إن كنوسوس عاصمة كريت شهدت تطوراً كبيراً وصارت تحت حكم ملوكها المينويين مركزاً مشعاً للفن والحضارة (حوالي ١٧٥٠). كما انشئت مراكز تجارية كريتية على شواطىء بحر إيجه كافة وأدخلت جاليات تجارية الحضارة الكريتية-الشرقية الى شاطىء آسيا الصغرى وإلى كورفو وصقلية. وتقاسم البحارة الكريتيون مع الفينيقيين الملاحة في المتوسط وبحر إيجه. ولكن النفوذ الفينيقي في مدن إيجه سيمتد خصوصاً من القرن الخامس عشر حتى القرن الثالث عشر. وإن ذكرى ذلك محفوظة في سلسلة أساطير يونانية: كأسطورة داناوس وقدموس وإيو وفي بعض أجزاء من أسطورة هرقل والميثولوجيا والدين. هكذا فإن أفروديت هي إلهة نصف ـ شرقية.

إن إزدهار الكريتيين وقوتهم البحرية هما اللذان أوقفا الموجات الآرية طوال قرون عدة عند الأبواب الشمالية من بلاد اليونان العتيدة. في حين كان الحثيون والميتانيون والفرس ـ الميديون والكاسيون قد استقروا في الأناضول وإيران وبابل، إلا ان الآخيين طليعة اليونان الذين وصلوا حوالي العام ٢٠٠٠ الى شبه الجزيرة البلقانية لن يتمكنوا من السيطرة على شبه الجزيرة الهللينية إلا عند بدء انهيار العالم الكريتي (حوالي ١٤٠٠).

وهكذا فإن هذا العالم الكريتي-الإيجي اليافع طور إقتصاده البحري في وجه الشرق المتوسطي الذي شاخ وعاد الى الاقطاعية والاقتصاد القاري. وإن العالم الجديد الغربي والبحري، المركز على العالم الإيجي والمتمحور مع مثلث مصر ـ فينيقيا ـ كريت، سيندفع نحو أقدار كبيرة وجديدة. فأسس اقتصاد جديد متجه بخاصة الى البحر قد وضعت في وجه اقتصاد الشرق المتوسطي المزعزع.

لكن كان لا بد من قرون عديدة بعد قبل ان يتمكن هذا الاقتصاد الجديد أبو حضارة جديدة من تخطي الاقتصاد القاري القائم في الشرق القديم والهيمنة عليه. وهذا الانتقال من حضارة الى اخرى وهذا التحول سيكونان من صنع فينيقي لبنان بدءاً من العام ١٢٠٠.

بانتظار ذلك، فإن العالم الكريتي والإيجي المستفيد من إنحطاط الملاحة الفينيقية الموقت سيصبح سيد البحر وسيضع بذور الحضارة الهللينية المقبلة التي ستولد في ايونيا واليونان من مزيج السكان الإيجيين الأصليين والآريين المهاجرين.

III. مصر من العام ٢٠٠٠ الى ١٦٠٠
عظمة وانحطاط

١ ـ مرحلة قوة وعظمة (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠)

إجتازت مصر على التوالي بين العام ٢٠٠٠ والعام ١٦٠٠ مرحلتين متعادلتين بشكل ظاهر. الأولى هي عهد السلالة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٧٨٨) التي شهدنا مجيئها الى السلطة وأظهرنا منجزاتها الكبرى. وقد بلغت العظمة والحضارة المصريتان تحت حكم ملوك هذه السلالة المجيدة ذروتهما.

وأما خلال المرحلة الثانية الممتدة من ١٨٠٠ الى ١٦٠٠ تقريباً فإن العرش الفرعوني ستحتله سلسلة طويلة من الأمراء الضعفاء والعاجزين عرفت مصر تحت حكمهم الفوضى والتجزئة وفي النهاية الغزو الأجنبي وسيطرة الآسيويين المعروفين بالهكسوس.

وإذا كان الملك حمورابي منشىء أول امبراطورية بابلية متفوقاً على معاصره الفرعون المصري أمنمهت الأول مؤسس السلالة الثانية عشرة فإن خلفاء هذا الأخير على عكس الأمراء الضعفاء الذين خلفوا الملك البابلي العظيم تميزوا بالصلابة والنشاط.

فأمنمهت الأول (٢٠٠٠ ـ ١٩٨٠) الذي، كما رأينا، كان مكرساً نفسه لإصلاح الدولة وتحصين الحدود قد قضى إثر مؤامرة دبرت ضده في الحرم الملكي.

وأما سنوسرت الأول (١٩٨٠ ـ ١٩٣٩) إبنه وخلفه فقد حرص على إخفاء إغتيال أبيه. ذلك أنه كان أمراً لا يصدق بعد أن يموت فرعون وهو كائن إلهي ومقدس بمثل هذه الميتة العنيفة. وإحباطاً لسعي الطامحين الى العرش العتيدين وتلافياً لمؤامرات البلاط وتكرار الدسائس المماثلة فإن الفرعون الجديد كان أول من

أشرك إبنه بالعرش. وهذا التدبير الحكيم الذي أمن الاستقرار للسلالة قد إتبعه خلفاؤه أيضاً.

واستأنف سنوسرت الأول العمل الاستعماري الذي بدأته السلالة السادسة (٢٥٤٠ ـ ٢٣٩٠) في النوبة. وأما في كنعان، كما رأينا، فإن النفوذ السلمي للفراعنة قد إسترجع إثر حملات تأديبية (١٩٧٠). ومن بين الشعوب والقبائل التي كانت خاضعة لهم «قلاع الخيطا» (الحثيين العتيدين) الذين كانوا قد تغلغلوا في فلسطين.

لقد جاءت قصة الأمير الفرعوني الهارب سنوهيت في عهد الفرعون سنوسرت الأول كما نذكر. فهذا الأمير الذي قد يكون متورطاً في المؤامرة المدبرة ضد الفرعون امنمهت الأول فرّ الى شمال سورية حيث عمل على نشر نفوذ بلاده. وأيضاً في أيام الفرعون سنوسرت الأول بدا ملوك جبيل كأمراء مصريين معينين ومرسلين من قبل فرعون.

كان حكم خليفتي سنوسرت الأول وهما أمنمهت الثاني (١٩٣٨ ـ ١٩٠٧) وسنوسرت الثاني (١٩٠٦ ـ ١٨٨٨) حكماً باهتاً.

غير أنه وتحت حكم سنوسرت الثاني تم إنجاز كبير كان قد بدأ في العهود السابقة وهو تجفيف واحة الفيوم الكبرى جنوب غرب القاهرة وريها بانتظام واستثمارها حتى غدت أكثر المناطق خصباً في مصر.

وأما سنوسرت الثالث وهو سيزوستريس الأسطوري (١٨٨٧ ـ ١٨٥٠) فكان آخر شخصية كبيرة في السلالة الثانية عشرة وأحد أشهر فراعنة مصر. تحت حكمه يبدو أن وظيفة الوالي قد زالت. فأمنمهت الأول، كما رأينا، قد أبقى إمتيازات نواب الملك في مختلف المقاطعات مكافأة لهم على الدعم الذي قدموه اليه لدى تسلمه العرش. لكن تلك الامتيازات كانت قد تحولت مع مرور الزمن الى تفتت حقيقي للحكم المركزي. لذا كان من شأن الغاء هذه الوظيفة العليا ان يعيد الى الملكية المزيد من هيبتها وسلطتها.

غير انه وتحت حكم سنوسرت الثالث الذي اشتهر كفاتح كبير وظافر، بدا نفوذ مصر الذي اعيد بجهد سابقيه، في كنعان وفينيقيا وسورية الشمالية (منذ سنوهيت) مهدداً في هذه المناطق بفعل حركات معادية تلت الهجرات الآرية والشمالية.

ففي سورية الشمالية فإن امير أو شيخ ريزينو الذي كان في الماضي صديق فرعون هو الآن على عداوة معلنة ضده. لكن جيشاً مصرياً يقوده سنوسرت الثالث بنفسه أعاد ريزينو الى الصواب. غير أنه ما أن غادر الجنود المصريون المنطقة حتى عاود السوريون الشماليون موقفهم العدائي.

وفي نحو تلك الفترة أيضاً لم يعد أمراء جبيل ـ بيبلوس حكاماً مصريين بل أمراء محليين تابعين للفرعون ويحملون أسماء من أصل أموري. وإن الهدايا النفيسة التي كان ملوك مصر يرسلونها الى هؤلاء الملوك الصغار، والتي صنع بعضها في المحترفات نفسها التي كانت تزود أسرة امنمهت الثالث، تدل على الأهمية النسبية لهؤلاء الملوك الصغار. وتؤكد هذه الأهمية معاملة الفراعنة ملوك بلاد أدونيس هؤلاء كمختصين بالعبادات الأوزيرية.

وأما أمنمهت الثالث (١٨٥٠ ـ ١٨٠١) فقد اهتم بشكل خاص بالاستثمار الاقتصادي والزراعي كما اشتهر بأنه بنّاء. بنى هرمه وقصره في الحواره بين ممفيس والفيوم وهما مشهوران، وبخاصة قصره الذي لم يعد موجوداً اليوم أثار اعجاب هيرودوت. فهو صرح جبار سماه اليونانيون قصر التيه. وكان يحوي حوالي ٣٠٠٠ غرفة موزعة على طابقين، وظل سليماً حتى القرن السادس قبل الميلاد.

إنحطاط الأسرة الثانية عشرة ونهايتها.ـ إن حكم امنمهت الثالث الطويل هو كحكم بيبي الثاني في الماضي (٢٤٨٥ ـ ٢٣٩٠) تبعه انحطاط سريع. فخليفتاه امنمهت الرابع (١٨٠٠ ـ ١٧٩٢) والملكة سبكنيفرورا (١٧٩١ ـ ١٧٨٨) لم يتركا أي أثر. إذ أن انعدام الشخصية الذي ميز هذين الملكين فضلاً عن قلة العزم عجلا في وضع نهاية للأسرة المجيدة. ونظراً لانعدام وجود وريث ذكر كانت الملكة سبكنيفرورا آخر من ولّي العرش في الأسرة الثانية عشرة.

٢ ـ الفوضى والتجزئة (١٧٨٨ ـ ١٥٨٠)

أ ـ ردود فعل الغزوات الشمالية: الآسيويون في الدلتا

إن الغزوات الآرية لم تبلغ مصر، غير أن هذه الأخيرة كونها مرتبطة بالحياة الاقتصادية الدولية لم تنجُ من ردود الفعل الناجمة عن الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها آسيا الأمامية التي ضعضعتها هذه الغزوات. فالتجارة مع القارة الآسيوية توقفت تماماً تقريباً. والأزمة الاقتصادية التي

تجتازها فينيقيا بفعل فلتان الأمن على طريق الخليج العربي انعكست أكثر فأكثر على مدن الدلتا. وعلى الحدود الشرقية للدلتا ازداد ضغط البدو واللاجئين ممن هربوا من اضطرابات الغزو الشمالي. وكنا رأينا إبراهيم وقبيلته وايبشا وذويه وقد دخلوا الدلتا في طلب اللجوء (حوالي ١٩٠٠).

لقد نجم عن الهجومات الجماعية والمتتالية من قبل الحثيين والكاسيين ضد سورية الشمالية وبابل (١٨٠٠ - ١٧٥٠) طبعاً تزعزع عام طال الشعوب والقبائل من الخليج العربي وجبال طوروس حتى فلسطين. فالحوريون والميتانيون والكنعانيون والأموريون والإسرائيليون وسواهم من الساميين البدو الذين تحركوا أو طردوا نحو الجنوب اتجهوا الى دلتا النيل كميناء خلاص. وإن استقرار الكاسيين في بلاد ما بين النهرين سيقابله حدث مماثل هو ظهور الهكسوس في مصر.

ومنذ العام ٢٠٠٠، كما رأينا، تسارعت حركات الشعوب هذه بشكل ملموس. فهناك مجموعة كبيرة من الميتانيين - الحوريين تغطي قطاعاً شاسعاً يمتد من سفوح جبل طوروس وجبال أرمينيا حتى العاصي. وأما الخطيون أو الحثيون فوصلوا الى كنعان - فلسطين منذ أيام ابراهيم. أما الخابيرو - العبرانيون والأخلامو - الأراميون والإسرائيليون الرحل فتابعوا بداوتهم عند حدود الصحارى والبلاد المزروعة. وقد بدأت العناصر العديدة من الأجانب الذين تغلغلوا الى دلتا النيل يشكلون طليعة مستعمرة ستفتح مصر، التي أنهكتها الأزمة الاقتصادية، امام غزوة آسيوية جديدة هي غزوة الهكسوس (١٦٦٠).

إن تحركات الشعوب هذه، وهذه الهجرات (حوالي ١٧٠٠) تتعارض بشكل غريب مع جمود وخمول الدول الشرقية الكبرى في العصر نفسه دولة الكاسيين في بابل وآشور والحثيين في كنعان وعيلام إلخ... ولن نراهم يدخلون مسرح التاريخ إلا حوالي القرن الخامس عشر وإثر هزيمة الهكسوس.

ب - من نهاية السلالة الثانية عشرة الى قيام دولة الهكسوس

حوالي العام ١٨٠٠، كما رأينا، فإن السلالة الثانية عشرة التي أعادت الى مصر عظمتها وقعت في الإنحطاط. وبدأت مرحلة من الفوضى مع غياب آخر ممثل لهذه الأسرة الملكية حوالي العام ١٧٨٨. ومنذ هذا التاريخ فإن مصير مصر فضلاً عن مصير الشرق المتوسطي كله سيكون مرتبطاً بمصير الشرق الأدنى الآسيوي حيث استقر الشماليون. فسدود الشمال المفتوحة منذ العام ٢٠٠٠ ستبدأ انطلاقاً من العام

١٨٠٠ بإغراق الأقطار الشرقية بموجاتها شبه الدورية.

وبعد السلالة الثانية عشرة تلت مرحلة غامضة وفوضوية دامت ٢٠٠ سنة تقريباً هي: «المرحلة الوسيطة الثانية» من تاريخ مصر (١٧٨٨ ـ ١٥٨٠).

وكما حصل خلال القرنين (٢٣٦٠ ـ ٢١٦٠) اللذين دامت بهما «المرحلة الوسيطة الأولى» فإن مصر وخلال «المرحلة الوسيطة الثانية» ستشهد مجدداً المصائب والمحن نفسها: إضطرابات، تجزئة، ثورات، والتي بإضعافها الملكية فإنها تفتح الباب أمام الغزو الخارجي وإقامة سلالات من الفراعنة الآسيويين أو الهكسوس (١٦٦٠ ـ ١٥٨٠).

«كل أعراض الأزمنة الشديدة الإضطراب تضاعفت بعد العام ١٧٨٨: ندرة النصب التي تحمل أسماء ملكية حقيقية، زيادة النصب التافهة التي تحمل أسماء مغتصبين، توقف قوائم أبيدوس وسقاره التي لم تعد تدون اسم أي ملك منذ نهاية السلالة الثانية عشرة وحتى بداية السلالة الثامنة عشرة (١٧٨٨ ـ ١٥٨٠). مع هذا كانت هناك كميات كبيرة من الأحجار المنحوتة بشكل جعران (نوع من الخنافس) والمحفورات التي تدل على النفوذ الآسياني وتحمل أسماء نحو ١٥٠ ملكاً صغيراً... وفي هذه الفوضى العارمة... فإن الترتيب الذي يورده موجزو مانيتون... يلحظ وجود سلالة ثالثة عشرة من ملوك طيبة يحكمون مصر بأسرها، ثم تأتي بعدها سلالة رابعة عشرة من الملوك المصريين من كزويس وهي مدينة في الدلتا الغربية وثلاث سلالات: الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة من الملوك الهكسوس في الدلتا (أفاريس) مع سلالة سابعة عشرة موازية من الملوك الطيبيين في مصر العليا»[٩].

وباختصار فبين نهاية السلالة الثانية عشرة ومطلع السلالة الثامنة عشرة التي سوف تطرد الهكسوس هناك خمس سلالات مارست الحكم خلال أكثر من ٢٠٠ سنة (١٧٨٨ ـ ١٥٨٠) في مصر كان يفتك فيها الإنحطاط والتشرذم ويسود غزاة جاؤوا من آسيا والنوبة. وتحت حكم هذه السلالات، والتي بعضها متواز، فإن الحكم هو في أيدي ملوك مغتصبين. وإن السلالات الثلاث للهكسوس ظهرت بدءاً من العام ١٦٦٠.

9 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 465.

لقد بدأ إذن دخول طلائع عناصر الهكسوس الى دلتا النيل قبل العام ١٧٥٠ في حين لم تنبسط لهم السيادة السياسية على مصر إلا العام ١٦٦٠ وسرعان ما سقطت حوالي ١٥٨٠.

وهكذا، وعلى صورة النيل، المحكوم به، يبقى تاريخ مصر، كما قلنا، كله عبارة عن «فيضان وشح مياه، سنوات سمان وسنوات قحط، وحدة وثنائية، إرتفاع وهبوط، إندفاع في تسامٍ أعلى وانحطاط في منتهى الفساد الفوضوي، وكل هذا يتتالى مداورة. إن هذه الحركة الإيقاعية التي تطبع تطور الشعب المصري منذ فجر التاريخ حتى أيام الهكسوس سوف تنظم أيضاً مصير وادي النيل خلال القرون العديدة التالية.

IV. أمبراطورية الهكسوس
محاولة أولية لأمبراطوريات الشرق العتيدة
١٦٦٠ ـ ١٥٨٠

١ ـ الهكسوس: إسمهم، إنتشارهم، أصلهم

حول المجتاحين المعروفين بالهكسوس والذين سادوا وحكموا مصر بعد العام ١٧٠٠ لا نملك إلا مقطعاً من مانيتون حفظه المؤرخ جوزيفوس:

عند نهاية السلالة الثالثة عشرة وحوالي العام ١٧٠٠ تقريباً وتحت حكم تحوتمس، بحسب تحديد مانيتون، «هب الغضب الإلهي ضدنا، ولست أدري لماذا، وهكذا فجأة جاء رجال من الشرق من عرق مجهول وتجرأوا على اجتياح بلدنا بسهولة وبغير معارك واستولوا عليه بالقوة. وقبض هؤلاء على الرؤساء وأحرقوا المدن بوحشية، وهدموا معابد الآلهة، وعاملوا الأهالي بشراسة فائقة... وفي النهاية عينوا واحداً منهم ملكاً هو سالاتيس. فأقام في ممفيس وأخذ يجمع ضرائب من المقاطعات العليا والسفلى وترك حاميات في الأماكن الأكثر ملاءمة. وحصّن بخاصة منطقة الشرق لأنه كان يتوقع أن الأشوريين إذا ما أصبحوا يوماً ما أقوى منه فسيطمعون بمملكته ويهاجمونها... وقد سمي هذا الشعب كله بالهكسوس ومعناها الملوك الرعاة... ومنهم من يقول انهم كانوا عرباً»[10].

إسمهم. ـ حول معنى كلمة هكسوس، يجمع المؤرخون اليوم على أن تفسير مانيتون خاطىء وأن معناها «الملوك الأغراب» لا الملوك الرعاة.

انتشارهم. ـ لم يحصل دخول الهكسوس الى مصر كما تصوره رواية مانيتون

10 F Josèphe, cité par Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 470 et 471.

بشكل هجرة مفاجئة وضخمة انقضت على الدلتا «كسرب جراد». بل ان مجموعات اسيوية مجهولة قبل ١٧٥٠ بدأت تتسلل الواحدة تلو الأخرى نحو الدلتا الشرقية. ولما كان الفراعنة ضعفاء للغاية ولم يكن بوسعهم ردها فقد تجاهلوها. وإن عناصرها المتفرقة شكلت طلائع المجتاحين الشرقيين الذين سادوا وادي النيل بعد العام ١٧٠٠ والذين أطلق عليهم المصريون: الهكسوس.

«إن مرحلة استقرار الهكسوس في مصر هذه دامت ربما نصف قرن (١٧٣٠ ـ ١٦٨٠)- فكانت تأتي كل سنة مجموعة آسيوية جديدة على ما يبدو وهكذا تكاثروا وتنظموا في دولة وانتخبوا رئيساً واحداً لهم هو سالاتيس بحسب قول مانيتون... وعندها بدأ غزو مصر. وحول هذا الحدث البالغ الأهمية لا نملك إلا شهادة مانيتون التي أشرنا إليها. ويبدو أن النصر أحرزه الهكسوس بسهولة فائقة.

فقد كان عليهم أن يقاتلوا عدواً أرهقته سنوات عديدة من الفوضى وكانوا من جهة أخرى متفوقين عليه بالتأكيد، إن لم يكن بالعدد، فبالعتاد والأسلحة. فالمصريون لم يكونوا يعرفون لا الجياد ولا عربات الحرب التي كان قد أدخلها الآريون الى آسيا قبل قرنين أو ثلاثة والتي تبنى الهكسوس استعمالها على الفور. ويمكننا تصور هلع المصريين عندما شاهدوا أنفسهم للمرة الأولى أمام تلك العربات القاتلة. وهذه الأسباب المختلفة تفسر بما فيه الكفاية النصر السريع الذي أحرزه الغرباء»[11].

وقبل حوالي سبعة قرون من دخول الهكسوس (حوالي ٢٣٩٠) وعشية المرحلة الأولى الوسيطة كانت عناصر آسيوية، سامية وآسيانية متسللة الى الدلتا الشرقية قد أفادت من انحطاط الملكية والفوضى العامة المستشرية في مصر لتفرض سلالة من الفراعنة الآسيويين والساميين: السلالة الثامنة (٢٣٩٠ ـ ٢٣٦٠). لكن سيادة الهكسوس كانت أقسى وأعمر (١٦٦٠ ـ ١٥٨٠). ذلك أنه وللمرة الأولى في تاريخه، فإن وادي النيل الذي غزته هجرة كبيرة سيحكمه طوال قرن برابرة أغراب.

أصلهم. ـ أما أصل الغزاة الآسيويين هؤلاء الذين اعتبرهم البعض عرباً والبعض الآخر فينيقيين فبوسع المؤرخين تحديده اليوم. فتربط هجرتهم بالغزو الشمالي الذي أسلفنا الحديث عنه والذي منذ العام ٢٠٠٠ وبخاصة العام ١٨٠٠ ضرب الهلال الخصيب ودفع جنوباً شعوباً من كل الأعراق: آسيانيين، أموريين، كنعانيين، آريين، ساميين

11 Drioton et Vandier, *L'Egypte*. p. 283, 284.

بدو، هندو ـ آريين إلخ . . . فكان ان انتهى المطاف ببعض هذه المجموعات المتحركة في مصر حيث سموا بالهكسوس.

إن أسماء ملوكهم وآلهتهم وقسمات وجوههم وسلاحهم البرونزي والحديدي والشكل المستطيل الذي اتخذته معسكراتهم المحصنة فضلاً عن استخدام الحصان والعربات إلخ. . . تؤكد أن الهكسوس يؤلفون مجموعة مركبة، من شعوب وأعراق مختلفة. فهم خليط من الساميين والآسيانيين والكنعانيين والحوريين والبدو العرب الذين كان رؤساؤهم، على ما يبدو، من الآريين وبالتحديد ميتانيين.

إن موريه الذي يشاطر هذا الرأي يقدم حجة جديدة تثبته: «على نصب وجد حديثاً في ناباتا في النيل الأعلى، فإن تحوتمس الثالث الذي غلب الحيقاو خاسيتيو (الهكسوس) وطردهم الى كنعان والفرات يقول فيه: إن عدوه الألد هو جيش الميتانيين الكبير. فهذا، على ما يبدو وقد كشف المصريون النقاب عنه أخيراً، هو الاسم العرقي لأهم زعماء الهكسوس والذين سماهم مانيتون بالملوك الرعاة»[12].

٢ ـ مساحة أمبراطورية الهكسوس. أفاريس، مدينة رئيسية (العاصمة).

إن هذه الأمبراطورية البربرية الكبيرة كانت تمتد من جهة على وادي النيل ومن جهة أخرى على فلسطين وفينيقيا وسورية. كما أنها قد تكون شملت بلاد ما بين النهرين العليا إذ أن تلك المنطقة، كما نعلم، هي المركز السياسي بالنسبة الى الميتانيين ـ الحوريين، كبار قادة حملة الهكسوس وموجهيها. إن بلاد ما بين النهرين الوسطى والسفلى موطن الآريين الكاسيين ظلتا خارج حدودها. وبالنتيجة فإن سيادة الهكسوس كانت تضم للمرة الأولى في تنظيم سياسي واحد مصر وسورية الجغرافية.

ولهذه الأمبراطورية المترامية الأطراف، الممتدة من طوروس الى حدود النوبة، لم تكن طيبة ولا ممفيس تصلح لها عاصمة. وعلى غرار ما حصل في الماضي عندما نقل الفراعنة الممفيسيون عاصمتهم من ثينيس في الجنوب الى ممفيس في الشمال (نحو ٢٨٩٥) لمراقبة الدلتا بشكل أفضل، فإن فراعنة الهكسوس ولسبب مماثل أيضاً أهملوا ممفيس «ميزان أرضَي النيل» لموقع أقرب من الحدود الآسيوية هو أفاريس في الدلتا الشرقية ومركز ثقل

12 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 475.

الأمبراطورية الجديدة والتي اختيرت كعاصمة. من أفاريس كان بوسع الحكام الهكسوس مراقبة مصر وسورية معاً.

أ ـ التنظيم الاقطاعي للأمبراطورية

كانت أمبراطورية الهكسوس وهي تنظيم إقطاعي أبعد من أن تتمتع بتنظيم داخلي يؤهلها بناء دولة حقيقية. فمناطقها المتباينة وشعوبها غير المتجانسة لم تكن مرتبطة بالسلطة المركزية إلا بروابط تابعية واهية. ففي مصر نفسها كان هناك مجموعة من السلالات الملكية وصغار الملوك التابعين. وكانت السلالات غير الهكسوسية التي كانت تحكم طيبة في الجنوب وكزويس في الدلتا الغربية تدفع الجزية للأسياد الهكسوس.

ب ـ غياب الوحدة النظامية والروحية

إن أمبراطورية الهكسوس وقد بنيت على التفوق العسكري بالسلاح والتقنية ولكن على الارهاب والعنف أيضاً، لم تسعَ أبداً الى تطوير علاقات فكرية أو وحدة روحية بين حكامها والشعوب الخاضعة لها. ففي ظل هذا النظام من الاحتلال العسكري الذي لم يستمر إلا بالعنف والاضطهاد فإن عجز المحتلين الفكري لم يعرف كيف يرسي أي أساس لوحدة دينية وسياسية. بل على العكس، فمن بين جميع الآلهة المصرية اختار الهكسوس سيت خصم راع وأوزيريس مجسد الشر والعواصف والصحراء والبلاد الغريبة ليجعلوه إلههم السلالي. وربما فعلوا ذلك للتشابه القائم بين دور سيت والدور الذي كان يلعبه الإله تشوب لدى الأناضوليين والحثيين والميتانيين وهم من عرق الحكام الهكسوس نفسه.

إن مغامرة الهكسوس الذين أسسوا في مصر أمبراطورية مصرية يحكمها غرباء ويعززها مرتزقة آسيويون هي صورة مسبقة عن مغامرات أخرى مماثلة سوف يكون وادي النيل مسرحاً لها. فمن غير أن ندخل في الحسبان السيطرة الأشورية والفارسية والرومانية والعربية والتركية والبريطانية أو حملة بونابرت مما جعل من مصر مجرد محافظة مرتبطة بعواصم بعيدة، فإن أمبراطورية الهكسوس هي النموذج الأم للأمبراطوريات المصرية التي شادها البطالسة الذين جاؤوا من اليونان أو الخلفاء الفاطميين المهاجرين من أفريقيا الشمالية أو سلاطين المماليك المجندين من بلاد آسيوية.

فيمكننا مقارنة أمبراطورية الهكسوس خصوصاً بأمبراطورية المماليك. ومثل

الهكسوس جعل المماليك من مصر مركزهم السياسي وحكموا وادي النيل وسورية خلال أكثر من قرنين ونصف (١٢٥٠ ـ ١٥٠٠) ب.م. ولم يكونوا هم أيضاً سوى إطار سياسي وعسكري مطبق على الشعب المصري الأكثر تطوراً منهم والذي لم يكن لهم معه أي اتصال.

وتماماً كمرحلة حكم المماليك، خلال حكم الهكسوس فإن الخطوط بين المنتصرين والمهزومين ووحشية الأولين وكره الآخرين لهم، كل هذا لم يؤد الى أية فكرة خصبة. إن الهكسوس وبلقائهم الحضارة المصرية القديمة لا يبدو أنهم قد أفادوا منها البتة.

٣ ـ اسرائيل وفينيقيا أيام حكم الهكسوس

أ ـ اسرائيل تحت حكم الهكسوس

من بين حشود المجتاحين الذين تبعوا حركة الهكسوس تظهر قبيلة اسرائيلية. فهرباً من الغزو أو من شبح المجاعة هاجر يعقوب أو إسرائيل وعشيرته التي ما تزال بدوية الى مصر. واستقروا كمستوطنين في السهول الخصبة على الضفة الشرقية للدلتا. وكان ابناء اسرائيل يعيشون في موطنهم الجديد حياة مرعى وزراعة. وكما في كنعان كذلك كان ورثة الوعد هؤلاء يعيشون في عزلة عن المصريين لسبب ديني وينزوون في بلد غوشين.

إن فراعنة الهكسوس الأسيويين الذين ربما كانوا من الساميين مشوا على خطى ملوك السلالة الثامنة فأحاطوا انفسهم بمعاونين وعملاء آسيويين وأجانب. وكان يوسف بن يعقوب الذي باعه اخوته في فلسطين الى قافلة من التجار الاسماعيليين المتجهين الى مصر قد أصبح في ذلك الوقت وزيراً أعلى. وكان قد توصل بذكائه وما يتمتع به أبناء عرقه الى الترقي في الحكم لدى شعب أجنبي.

وأقام يوسف أهله على اراض ليستقروا فيها، وكان أبوه يعقوب البالغ من العمر ١٣٠ عاماً قد توفي بعدما عين يوسف خلفاً له. ونقل جثمان يعقوب الى بلاد كنعان ليرقد بحسب وصيته في الضريح العائلي الى جانب ابيه وجده: إسحق وابراهيم. وحكم يوسف القبيلة إثر وفاة والده وتوفي عن عمر يناهز ١١٠ سنوات.

ب ـ فينيقيا تحت حكم الهكسوس.

كان ملوك جبيل في زمن السلالة الثانية عشرة المصرية ساميين من أصل اموري. وطوال فترة حكم الملوك الرعاة كانت فينيقيا تابعة لهم وهادئة. ذلك انه ومن بين المتعاونين مع الفراعنة الهكسوس وعملائهم كان هناك عدد كبير من الفينيقيين والكنعانيين. بل إن جزءاً كبيراً من المجتاحين الهكسوس قد يكون من الفينيقيين، وبحسب رواية أخرى لمانيتون. حتى انه وفي تلك الفترة، كما يبدو، كان لجبيل سلالة من الملوك الآسيانيين أو الاريين.

«إننا نعلم من نصب وجد في جبيل أنه أيام نفرحوتب الأول (حوالي ١٧٠٠)... كان الحكم في بيبلوس في يد الملك رايانا إبن انتينا. فهذه الأسماء التي تنتهي بحرفي «نا» هي غريبة عن السامية غير انها مستعملة بكثرة في لغة... نعتقد انه كان لها روابط بلغة الحوريين. وإسم انتينا هذا سيظهر أيضاً على منحوتتين بشكل جعران (نوع من الخنافس) من حجر الجمشت عثر عليهما، كما يبدو، في بيبلوس، ويلاحظ ان مظهرهما وتزيينهما يشبهان الخنافس الأولى التي ظهرت زمن الهكسوس»[13].

وحوالي العام ١٦٠٠ كانت صيدون اكبر مدينة في فينيقيا وتمتلك منشآت ومراكز تجارية في القارة الآسيوية وبعض جزر المتوسط. وكان إسمها يدل على شمل البلد الفينيقي يومها بحيث كانت كلمة صيدوني في ذلك العصر وفي كثير من الأحيان رديفاً لكلمة كنعاني (فينيقي لاحقاً).

٤ ـ انهيار امبراطورية الهكسوس.

على نحو ما حصل إثر سقوط امبراطورية ممفيس القديمة وقيام امبراطورية طيبة الوسطى فإن تحرير مصر وإحياءها بعد غزو الهكسوس لها كانا صنيعة امراء ورجال من الجنوب. لقد سعى امراء طيبة الذين كانوا تابعين للهكسوس في وقت مبكر بالظهور كحكام قوميين والتحرر تدريجاً من السيطرة الأجنبية المركزة في الشمال. فكان يواجه السلالة السادسة عشرة من الملوك الهكسوس خمسة ملوك من طيبة وكان يقابل السلالة السابعة عشرة الأجنبية في أفاريس سلالة سابعة عشرة موازية وقومية مقرها في طيبة. وأما مصر العليا التي كانت مقسمة إلى ممالك صغيرة فلم تلبث ان اعترفت بسيادة

13 M. Dunand, *op. cit.*, p. 20.

طيبة والتي كانت سياستها تُعد لهزيمة الهكسوس وتوحيد مملكتي مصر.

وفي حين كانت الدلتا ومصر الوسطى تحكم مباشرة من قبل الهكسوس ومصر العليا خاضعة لملوك طيبة وهم تابعون للهكسوس كانت النوبة التي انفصلت عن مصر تسطور على حدة تحت سلطة ملك كوشي او زنجي. وبين الدلتا الخاضعة للهكسوس والنوبة الخاضعة للزنوج كانت مملكة طيبة مهددة في كل حين بأن تسحق بتحالف تلك القوتين عليها.

إن النزاع بين طيبة وأفاريس قد يكون بدأ في أيام ملك طيبة سكنري الذي ربما قتل في معركة ضد الهكسوس. وإن مظهر جثمانه المحنط والذي يبدو في رأسه بعض الجروح «تثبت أنه قتل نتيجة مبتة عنيفة في سن الأربعين. وأطاحت ضربة فأس بجزء من خده الأيسر وكشفت أسنانه وكسرت فكه وألقته فاقداً الوعي على الأرض، في حين أن ضربة ثانية شجّت الجمجمة في العمق، وشق خنجر أو حربة الجبهة من الناحية اليمنى فوق العين قليلاً. وترك لفترة ملقىً على أرض المعركة وعندما رفع كانت جثته قد بدأت تتحلل، مما استوجب الإسراع في عملية التحنيط للحفاظ على جثمانه، كيفما كان»[14].

وأما الحرب الفعلية فقد نشبت في أيام حكم إبنه وخلفه قامس. وهناك قصة أدبية منقوشة على لوحة عثر عليها لورد كارنافون في طيبة تروي أصل وبدء تلك المعركة، وهي الوثيقة الوحيدة الدقيقة التي تعطينا بعض المعلومات حول حالة مصر إبان سيطرة الهكسوس.

يقول النص المتبقي على اللوحة إن قامس جمع أهل بلاطه وقال لهم إنه لا يسعه بعد الآن رؤية بلاده مقسمة بين ملك زنجي يحكم في النوبة من طرف وملك آسيوي في أفاريس من الطرف الآخر. وهذا الأخير يحتل الدلتا ويضع يده على ممفيس العاصمة الملكية القديمة. وأعلن لهم أنه ينوي طرد الآسيويين وتحرير مصر. أما اعضاء بطانته الخائفون فنصحوه بالروية لأن نتائج الحرب، بحسب رأيهم، غير مضمونة، ومن الأولى العدول عن القتال والاكتفاء بالتمتع بالجزء الباقي من البلاد الذي في أيديهم.

ولم يقتنع الملك قامس بهذا الكلام بل أصر على عزمه في القتال قائلاً: أريد تحرير كيمي والتغلب على الآسيويين. وكيمي هي «الأرض السوداء» أو الوطن الأم.

14 Maspero, cité par J. Capart, *L'Egypte des Pharaons*, p. 88.

ففي مصر فقط، هذا البلد الذي أقام فيه السكان الحضر منذ القدم، نلمح مثل هذا الشعور القومي او الوطني لدى ملك شرقي في الازمنة البعيدة.

وبعدما جمع قامس جيشه توجه لمقاتلة الأعداء حيث نشبت معركة كبيرة معهم مُني الهكسوس فيها بهزيمة فادحة. لقد أتاح هذا النصر لملك طيبة ان يمد أرجاء مملكته الصغيرة الى مناطق أخرى في الشمال حتى باتت تضم مصر الوسطى والعليا معاً.

وأما إبنه أو أخوه الملك أحمس فقد ساعده الحظ على استعادة أفاريس وتحقيق النصر الحاسم على الغرباء وطردهم من الدلتا. ويفيدنا نص مختصر ان أفاريس سقطت بعد حصار استغرق حملات عديدة وذلك العام (١٥٨٠) وأن ثورة في الجنوب قمعت. وأن أحمس لحق بالمهزومين حيث حاصر لفترة ثلاث سنوات مدينة في فلسطين وأحتلها. وبعد رحلة قام بها الى بلاد زاهي (فينيقيا) عاد أحمس الى مصر ليعيد تنظيم الأراضي المحررة وليبعد خطر النوبيين.

واذا كان نصر أحمس سهلاً نسبياً فلأن امبراطورية الهكسوس عشية سقوطها لم تعد سوى اطار سياسي هرم ومنهك مفروض على الشعب المحتل الذي لا تربطها به اي صلة. وإن انهيار السلالة التي كانت علة وجود هذه الامبراطورية عجل بسقوطها وزوالها الى الأبد.

٧. المعنى التاريخي لأمبراطورية الهكسوس

١ ـ أول أمبراطورية شرقية كبيرة

لم تكن أي امبراطورية شرقية كبيرة قد شيدت قبل مجيء الهكسوس. فلا مصر العليا والعليا والتي ملوكها أو فراعنتها هم آلهة أو أبناء آلهة ولا الدول الاستعمارية في بلاد ما بين النهرين والتي يلقب ملوكها «ملوك العالم» و«أقطاره الأربعة» نجحوا في مثل هذا المسعى. إن التنظيمات السياسية والأرضية الكبيرة التي أسستها هاتان القوتان كانت إقليمية بشكل أساسي. لذا فإن المحاولة الأولى في هذا المضمار التي قام بها الميتانيون ـ الحوريون المابطون حديثاً من الهضاب الآسيوية لا سابق لها. فللمرة الأولى جمع الشرق المتوسطي تقريباً برمته تحت الادارة السياسية لسلطة واحدة.

«إن «ملكية العالم» التي طمح اليها سرجون وحمورابي وغيرهما نراها تتحقق للمرة الأولى من سوبارو (سورية الشمالية والجزيرة حالياً) حتى جبل طوروس، ومن منابع الفرات حتى الشلال الأول في النيل على يد برابرة. . . فالميتانيون ـ الحوريون كانوا إذن بالمصادفة المنفذين الأوائل لسياسة اعتملت وخطط لها في رؤوس زعماء حضارات بلاد ما بين النهرين القديمة في أور وبابل منذ ألف سنة. فقد كان لهم النفوذ الفكري والسلطة المعنوية كي ينجحوا في بناء امبراطورية، لكن كان ينقصهم قوة العدد والاندفاع الذي لا يقاوم وهو ما تملكه هجرة بدو متباينين وجائعين يقودهم رؤساء نشطون»[١٥].

15 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 475.

٢ ـ الأمبراطورية المصرية.

إن النزاع الذي ذر قرنه بين ملوك طيبة الصغار وملوك الهكسوس في أفاريس ناشىء في الحقيقة عن عداوة محلية قديمة أكثر مما هو ناجم عن إرادة التخلص من إحتلال أجنبي وبربري. إنها العداوة التقليدية بين جزئي مصر، مصر الشمالية ومصر الجنوبية التي تحاول كل منهما، مستفيدة من الأزمات الكبرى، فرض سيادتها السياسية على مجمل بلدي النيل. فقبل هزيمتهم كان الهكسوس الذين غيّرتهم البيئة قد إندمجوا تماماً وتمصروا (صاروا مصريين). ففي مصر، كما في سورية، كانوا قد تخلوا عن لغتهم وتكلموا لغة أتباعهم وتكيفوا مع عاداتهم.

إنهم رؤساء الجنوب الذين هزموا أسيادهم الهكسوس، ملوك الشمال أو الدلتا، من أعلنوا أنفسهم أبطال الاستقلال الوطني ومحرري مصر من نير الأغراب. إنه أدبهم الرسمي (نقول بمفهوم اليوم دعايتهم) التي وصفت هؤلاء بالبرابرة وبالطاعون وبالكفرة. وفي الحقيقة، وبرغم وحشية حكم، أو بالأصح، غزو الهكسوس، ينبغي الإقرار بأنهم لم يعودوا في أواخر أيام حكمهم أغراباً في البلد الذي يحكمونه.

«فهل كانوا حقاً برابرة؟ كان يعتقد ذلك حتى أيامنا. لكن هناك تبدلاً في الرأي هذه الأيام. فالإكتشافات (خاصة في أريحا) تظهر فناً أصيلاً فيه الكثير من الطبعية كان قائماً زمن سيطرتهم يدل على كمال تام أكثر مما يدل على الوحشية. لقد تساءل ماسبيرو سابقاً ما إذا كان التجديد المدهش الذي شهده فن طيبة الثاني ـ فن توت عنخ آمون مثلاً ـ بتأثيراته الآسيوية والأوروبية الدقيقة، لم يكن ناتجاً عن هذه الخميرة الغريبة التي وضعتها وخمّرتها قبضة الملوك الرعاة الرهيبة في العجينة المصرية القديمة»[16].

وعلى غرار الأمبراطوريات المصرية-السورية العتيدة لكل من البطالسة اليونان وفاطميي الشمال الأفريقي والطولونيين الأتراك والمماليك الأتراك والشراكسة فإن أمبراطورية الهكسوس هي إذن جغرافياً أمبراطورية مصرية: مركزها السياسي هو مدينة أفاريس في الشمال أو الدلتا. وأما بالنسبة الى حكامها الغرباء الأصل فقد تمصروا. ثم أن ملوك طيبة الجنوبي الأصل، وبعد انتصارهم على الفراعنة الهكسوس، سيعيدون الى منطقتهم ولصالح عاصمتهم طيبة،المركز السياسي الذي يدير جزءي مصر ومركز أمبراطورية مصرية ـ سورية جديدة سينشئونها بقوة السلاح قريباً.

16 Daniel Rops, *op. cit.*, p. 55.

٣ ـ فينيقيا ـ فلسطين ـ سورية، محط أطماع مصر وبلاد ما بين النهرين

إن عملية التوحيد الأولى هذه للشرق المتوسطي والتي تحققت تحت سلطة الفراعنة الهكسوس أظهرت للمصريين المسالمين والذين تعز عليهم الهجرة، ضرورة حماية الدلتا، وذلك بالقيام بتوسع عسكري وسياسي في آسيا. إذ أظهر تدفق موجات الغزو الشمالية أن مثل هذه الحماية لا يمكن تأمينها، كما في الماضي، بتحصينات لبوابة الشرق (برزخ السويس). لكن الحدود الاستراتيجية لمصر بعد اليوم يجب نقلها الى الفرات او العاصي. وبالنتيجة فإن سورية، أو على الأقل، فلسطين سوف تكون بعد هذاالتاريخ منطقة حماية ضرورية لأمن وادي النيل.

«إن هذه المحاولة الأولية لإنشاء أمبراطورية يقوم بها برابرة قدموا حديثاً (الهكسوس) سوف تحيي السياسة الأمبريالية لدى الشعوب القديمة في الشرق. وان على رؤساء الحضارات القديمة أن يعاودوا تسلم كفة إدارة العالم. على أي حال، فالهجومات المباغتة التي جعلت كلاً من بابل وحلب وممفيس تستسلم وضعت المصريين وأهالي بلاد ما بين النهرين فجأة أمام خطر محدق استخفوا به حتى الآن: غزو البرابرة القادمين من الشمال. لقد أظهرت الكارثة أنه لغرض الدفاع لا بد من استباق الهجوم. إن المصريين في وهمهم الخادع بأنهم في مأمن داخل واحاتهم كانوا أكثر المتضررين وسوف يخرجون بعزم من واديهم لينقذوا أنفسهم ومعهم حضارة الشرق. وبعد زوال الخطر لا بد من محاولة جمع كل هذه الشعوب المتفرقة في أمبراطورية سلمية واحدة»[١٧].

ولأجل تحقيق هذه السياسة الإستعمارية الجديدة خصص فراعنة أمبراطورية طيبة الجديدة، الذين خلفوا الملوك الهكسوس، جهدهم وطاقاتهم. إلا أنها مهمة صعبة تتطلب منهم جهوداً مستمرة وتضحيات مضنية. فاحتلال سورية من قبل الجيوش المصرية سيكون من شأنه طبعاً إحياء العداوة القديمة بين مصر وبلاد ما بين النهرين. فالممر السوري الذي يصل بينهما والذي يطمع به البلدان معاً سيكون بينهما سبباً لشقاق دائم ومنازعات لا تنتهي.

ونحن نعلم بالفعل أنه ومنذ بدء التاريخ وبخاصة منذ سرجون الأول (حوالي

17 Moret, *Histoire de l'Orient*, I, p. 476.

٢٧٠٠) فإن الملوك المتعاقبين على بلاد ما بين النهرين سواء في جنوب أو وسط ذلك البلد (سومريين، أكاديين، بابليين) أو في شماله (ميتانيين ثم حثيين وبعدها أشوريين وكلدان وفرس وروم سلجوقيين إلخ. . .) حاولوا دوماً التمدد من صوب الغرب للوصول إلى البحر الأعلى (المتوسط الشرقي). ولتحقيق هذا الهدف فإنهم حاولوا دوماً إخضاع المناطق السورية إلى سلطتهم حيث أن توسعهم كان مصدر خطر على أمن وادي النيل. ولذا كان الفراعنة دوماً يتصدون له بردة فعل عدائية سواء بالطرق الدبلوماسية وأحياناً بالوسائل العسكرية.

إن هذه المنافسة بين مصر وبلاد ما بين النهرين القديمين للإستيلاء على الممر السوري والتي تمليها الجغرافيا هي ثابتة في تاريخ الشرق الأدنى. وسنراها تعاود الظهور بإستمرار خلال العصور والسنوات المقبلة كلما كان هذان البلدان سيدي مصيرهما.

٤ ـ فينيقيا ـ سورية الشمالية ـ بلاد ما بين النهرين، منطقة مرور كبير وتبادل تجاري عالمي بين الشرق والغرب.

إن تأثير الأسباب العامة والدائمة التي تحددها الجغرافية، والتي جعلت منذ فجر التاريخ دولتي ما بين النهرين ومصر على تضاد دائم، سيكون أشد وطأة منذ مطلع الألف الثاني، بفعل تطور الحياة الإقتصادية. إن تعزيز النشاط التجاري في العالم القديم الذي كان يستيقظ تدريجاً على الحضارة قد زاد كثيراً من أهمية الموقع الجغرافي للممر السوري-الفلسطيني. وإن الدور الذي كانت تلعبه هذه المنطقة حتى ذلك التاريخ، كأرض مرور بين بلاد ما بين النهرين ومصر ومنطقة توسع بالنسبة إلى الأولى ومجال حماية بالنسبة إلى الثانية، أضيف إليه بل طغى عليه دور جديد وأكبر كان على فينيقيا وسورية الشمالية أن تلعباه، بعد ذلك التاريخ إلى جانب بلاد ما بين النهرين على مسرح التاريخ وهو دور منطقة المرور الكبير والتبادل التجاري العالمي بين الشرق الآسيوي والغرب المتوسطي.

ففي النصف الأول من الألف الثالث، كما رأينا، فإن طريقين تنطلقان من الفرات الأسفل كانتا تصلان بلاد ما بين النهرين ومصر عبر سورية. الأولى تعبر منطقة حلب في شمال سورية وتنفذ إلى الساحل اللبناني أو الفينيقي ثم تصل إلى دلتا النيل عبر البحر

المتوسط. وأما الثانية فتسير على حدود الصحراء وتتوقف في محطات مدن كتدمر ودمشق وشرق الأردن وسيناء وبرزخ السويس أو البحر الأحمر. وهذا البحر وأسوة بالخليج العربي لم يكن في ذلك العصر إلا بحيرة داخلية قلّ أن تمر فيها السفن.

وأما في النصف الثاني من الألف الثالث، فإن تطور النشاط البحري في فينيقيا وكريت أعطى طريق فينيقيا ـ سورية الشمالية الأفضلية على الطريق الصحراوية. وهذا ما يفسر حالة التخلف التي كانت عليها كل من سورية وفلسطين الداخليتين حوالي ذلك العصر فضلاً عن إنحطاط شرق الأردن الذي كان مزدهراً ومكتظاً بالسكان حتى العام (٢٢٠٠).

واعتباراً من مطلع الألف الثاني فإن تطور العوالم التالية: كريت ـ إيجه، الأناضول، إيران والقارة الهندية، ودخولهم المسرح العالمي، جعل من طريق فينيقيا ـ سورية الشمالية ـ بلاد ما بين النهرين، طريقاً عالمية وأهم طريق من «طرق الهند» العتيدة. حتى الخليج العربي نفسه الذي كان من قبل بحيرة شبه خاوية غدا طريقاً حيوية للتبادل التجاري نحو السواحل الهندية والأسيوية عن طريق المحيط الهندي.

ومن جهة أخرى فإن البحر الأحمر تحول بدوره، إلى طريق تبادل تجاري نحو المناطق الآسيوية نفسها، عن طريق اليمن والمحيط الهندي، وإن «طريق الهند» الثانية هذه وكلها بحرية تقريباً، ستحاول منافسة الطريق الأخرى أي طريق فينيقيا سورية الشمالية ـ بلاد ما بين النهرين، والتي سوف تبقى متفوقة على العموم كونها، بالإضافة إلى الشواطىء الهندية، تؤمن المواصلات مع آسيا الوسطى وإيران والأناضول. ومن جهة أخرى فإن العالم الإيجي المتمحور مع جزيرة كريت، يتصل بطريقة أسهل مع فينيقيا بفضل جزيرة قبرص المقابلة، من اتصاله مع مصر البعيدة نسبياً.

كان من نتائج هذه الظروف الجديدة الطبيعية تزايد أسباب النزاعات بين سادة بلاد ما بين النهرين وسادة مصر لوضع يدهم على الممر السوري-الفينيقي. ولكن الإستيلاء على هذا الممر لا يؤتي فائدة لمن إستولى عليه ما لم يصل في الوقت نفسه، إلى البحر المتوسط والخليج العربي، وإلا تكون المشكلة قد حلت جزئياً.

وفي حين كانت التوسعات المابينهرية نحو الغرب تصل مؤقتاً فيما بعد (تحت حكم الأشوريين والكلدان والفرس والسلاجقة والعباسيين) إلى الشواطىء السورية ـ اللبنانية وأحياناً إلى وادي النيل نفسه، إلا أن التوسعات المصرية في آسيا (تحت حكم الفراعنة فضلاً عن البطالسة والملوك الفاطميين والطولونيين والأخشيديين والمماليك) نادراً

ما تخطت سورية الوسطى، غير أنها ما اجتازت الفرات أبداً.

وفي أيام حكم الفراعنة الهكسوس، كانت مصر تمد أطرافها حتى حدود بابل. ومع إنعدام الإتفاق بين مصر وبابل، أصبح التبادل التجاري بين الشرق والغرب شبه مقطوع مما تسبب بإنحطاط في المملكة الكاسية البابلية فضلاً عن تراجع في النشاط التجاري والبحري الفينيقي.

وأما الأمبراطورية المصرية الجديدة التي خلفت دولة الهكسوس واحتلت الممر السوري الفينيقي، حتى الفرات، فلم تحسن الأمور في هذا المجال. فبابل الكاسية، ستظل معزولة عن المتوسط ومستمرة في إقفال وادي الفرات الأسفل والخليج العربي في وجه جيرانه في الغرب: الميتانيين والمصريين. وإن التبادل التجاري الآسيوي الذي ما يزال مقطوعاً سيتجه أكثر فأكثر نحو الشمال، مدشناً «طريقاً ثالثة إلى الهند» تمر بإيران وآسيا الصغرى وشواطىء إيجه، والتي سوف تنافس الطريقين السابقتين. وهذه الطريق الجديدة التي ستوجه ضربة قاسية إلى الإزدهار الاقتصادي الفينيقي بل والمصري ستكون السبب في ازدهار الأمبراطورية الحثية الأناضولية ومدينة طروادة على الدردنيل وبعدها الأخيين أو اليونان الأولين الذين انتهوا بانتزاع التفوق البحري في بحر إيجه من الكريتيين.

إن هذه الأسباب العامة ستثير قريباً حروباً طويلة ومدمرة تغرق فيها دول الشرق الأدنى ما يقارب الثلاثة قرون (١٥٦٠ - ١٢٧٨). وأما أهم أطراف هذه النزاعات التوسعية فسيكونون فراعنة مصر من جهة وملوك بلاد ما بين النهرين العليا الميتانيين والحثيين الأناضوليين من جهة أخرى.

«ولنحدد طبيعة هذا النزاع... المطلوب معرفة ما إذا كانت آسيا ستدخل إلى أوروبا عن طريق الخليج العربي، التي تمر بدمشق وصور أو عن طريق البحر الأحمر، التي تمر ببرزخ السويس ومصر. وأما طرفا النزاع... فيقف كل منهما على إحدى هاتين الطريقين المتنافستين وينحنيان فوق المدى الصحراوي الذي يفصل بينهما ويحاول كل منهما غلبة الآخر ليحتكر المواصلات بين البحار الشرقية والبحار الغربية. وما عتما أن انقضا على بعضهما واشتبكا في معارك ضارية صورها بإسهاب نحاتو الفريقين على مشهد معركة بين أسد وثور، فرعون ضد آسيوي، أو بين وجه حليق ووجه ذي لحية مجعدة.

وإن الخصمين اللذين تركتهما هذه المبارزة الدهرية لاهثين وعاجزين لربما لم يعتمدا بما فيه الكفاية على مساعدة الشعوب التي تجوب المناطق الوسطى القليلة

الخصب كعربي الصحراء وسامي فلسطين وسوري فينيقيا وكلهم من أعراق معدمة إنما ماهرة. . . والذين إذا ما فقدوا الأرض وجدوا في الصحراء والبحر مأوى مزدوجاً لهم. . . وسواء أكان هؤلاء أصدقاء أم أعداء، أسرى أم شركاء فهم على أي حال مستشارون قيمون أو أعداء خطرون»[18].

وإن أسباباً مماثلة تقريباً للأسباب التي أسهمت خلال النصف الأول من الألف الثاني في إيجاد طريق الهند الثالثة (إيران ـ آسيا الصغرى ـ إيجه) ستجد في مطلع القرن السادس عشر ب.م. وبفضل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨) طريقاً رابعة إلى الهند والتي ستكون السبب في انهيار الحياة الاقتصادية في الشرق العربي، وستكون أحد أهم الأسباب للحالة الراهنة من التخلف، التي تعيشها المنطقة. وهذه الطريق الجديدة وهي بحرية برمتها ستتسبب أيضاً في انحطاط المدن الإيطالية وستكون على العكس من ذلك سبب ازدهار دول الأطلسي الأوروبية كالبرتغال وإسبانيا وفرنسا وإنكلترا وهولندا إلخ. . .

وأما في أيامنا هذه فإن طريقي الهند القديمتين اللتين تعبران الشرق المتوسطي أو العربي: طريق الخليج العربي ـ بلاد ما بين النهرين ـ الشاطىء السوري اللبناني وطريق البحر الأحمر ـ مصر فإنهما يستخدمان لنقل نفط الشرق الأدنى نحو المتوسط وهما على تنافس من جديد. إن المشاكل الشائكة التي تثيرها أو تحييها أهمية المواد قيد التبادل، تعقد العلاقات أكثر بين مصر والعراق المعاصرين والتي تشرف كل منهما على جزء من هاتين الطريقين. وإن التنافس القديم الذي سبب خصومتهما الدهرية في الماضي ها هو اليوم يثيرها من جديد.

إن هذه الظروف تفسر لنا عودة العداء الذي يواجه بقوة اليوم القاهرة خليفة ممفيس وطيبة وأفاريس والإسكندرية من جهة وبغداد وريثة أوروك وأغاده وأور وبابل ونينوى من جهة أخرى. ناهيك بالعداء بين بلدي الشرق الأدنى الشمالي اللذين سادا طويلاً في الماضي على بلاد ما بين النهرين ـ سوريا وهما: تركيا، وريثة الحثيين القدماء وأباطرة بيزنطية والسلاطين العثمانيين، وإيران خليفة ملوك فارس الكبار البارتيين والساسانيين.

18 H. Hanotaux, *op. cit.*, p. XXVIII.

٥ ـ الخاتمة.

إن الشرق المتوسطي القديم وهو عالم متباين قسمته وجزأته الطبيعة وحيث تتعايش في مناطق صحراوية وواحات مختلفة قبائل وشعوب ومجتمعات متغايرة هو غير قابل، كما قلنا، لتوحيد سياسي قوي ودائم. إن الأحداث التي تابعناها خلال العصور المتعاقبة حتى عصر الهكسوس في مصر وتلك الأحداث التي سنراها لاحقاً تؤكد هذه الحقيقة بأكثر مما يكفي.

بيد أن مجمل هذه المجموعة المعقدة من البلدان والشعوب المنوعة وبفضل موقعها الجغرافي ودورها الطبيعي كمنطقة مرور كبير وتبادل عالمي تشكل بلا ريب ومنذ مطلع الألف الثاني وحدة إقتصادية حقيقية يعتبر الممر السوري-اللبناني الفلسطيني نواتها وهمزة الصلة بينها.

ومن هذا الوضع المميز، لا يسع العالم الشرقي القديم ولا الحديث جني المنافع الناتجة عنه، ما لم تتعاون مختلف شعوبه في جو من السلم والوفاق للقيام بعمل مشترك للإستثمار الإقتصادي. «إن رأس المال جبان» كما يقول الإقتصاديون. وإن أحداث الماضي تعلمنا بطريقة صارمة أن أي نزاع بين بلد النيل وبلد الفرات، سيكون من نتائجه وقف التبادل التجاري العابر للقارات الذي يسلك طرق الشرق المتوسطي. ويوسع هذا النزاع إذا ما طال أو إحتدم، أن يتسبب بنقل هذا التبادل التجاري نحو الشمال (آسيا الصغرى) أو أقصى الجنوب (رأس الرجاء الصالح) مما يجر إلى إفقار منطقة تُعد إمكاناتها الإقتصادية الخارجية هائلة.

لقد رأينا أن أحداث التاريخ تنتج من أسباب عامة ودائمة تحددها الظروف الجغرافية وطبائع العرق، وهي «تشكل القاعدة، التي تفسر التغييرات التاريخية الكبرى». وإذا نظرنا إلى أحداث الماضي من هذه الزاوية فيمكننا أن نحدد ما ستكون عليه أحداث المستقبل، إن لم يكن الأحداث السياسية الخاصة أو المبادرات الفردية فعلى الأقل «الميول الطبيعية للتطور الاجتماعي والاتجاهات العامة التي تتبعها المجموعات البشرية في حالتها الطبيعية. . . وأيضاً الحدود التي يمكن لهذه الميول العامة أن تتغير ضمنها تحت تأثير الظروف الخاصة والإرادات الفردية».

وبهذا الصدد، فإن المعطيات العامة لتاريخ الشرق الأدنى، الذي لدى سقوط الهكسوس كان يشمل أكثر من ١٥ قرناً من مراحل التطور، هي معبرة بما فيه الكفاية. فهي تظهر بوضوح

الميول الطبيعية واتجاهات التطور الطبيعي العامة لدى المجتمعات المختلفة في الشرق الأدنى فضلاً عن الحدود التي يدور فيها هذا التطور. إنها تدل أيضاً على أن تأثير الظروف الخاصة والإرادات الفردية التي تعوق أو تعدّل أحياناً المجرى الطبيعي لتطور تلك المجتمعات هو محدود نسبياً وعابر بشكل أساسي.

ومنذ سقوط الهكسوس فإن الأحداث المنتظمة والدورية التي تعاقبت في بلدان الشرق الأدنى خلال ألوف السنين المقبلة (التي باتت بالنسبة إلينا ألوف السنين الماضية) لن تكون في خطوطها العامة إلا تكراراً لمراحل التطور التي ميزت النمو المتتالي لدى مجتمعات الشرق الأدنى السابقة في حالتها الطبيعية.

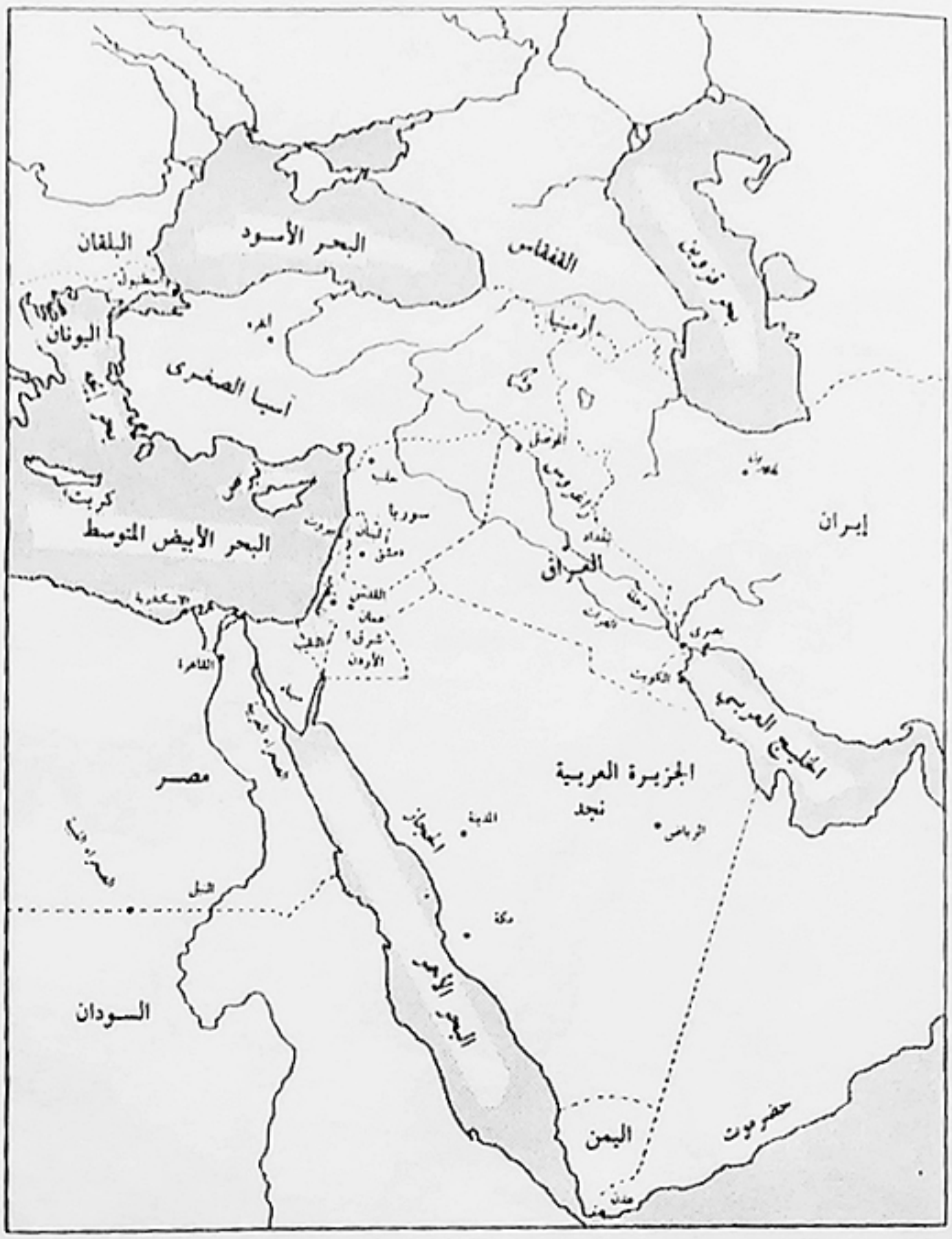

خارطة الشرق الأدنى المعاصر

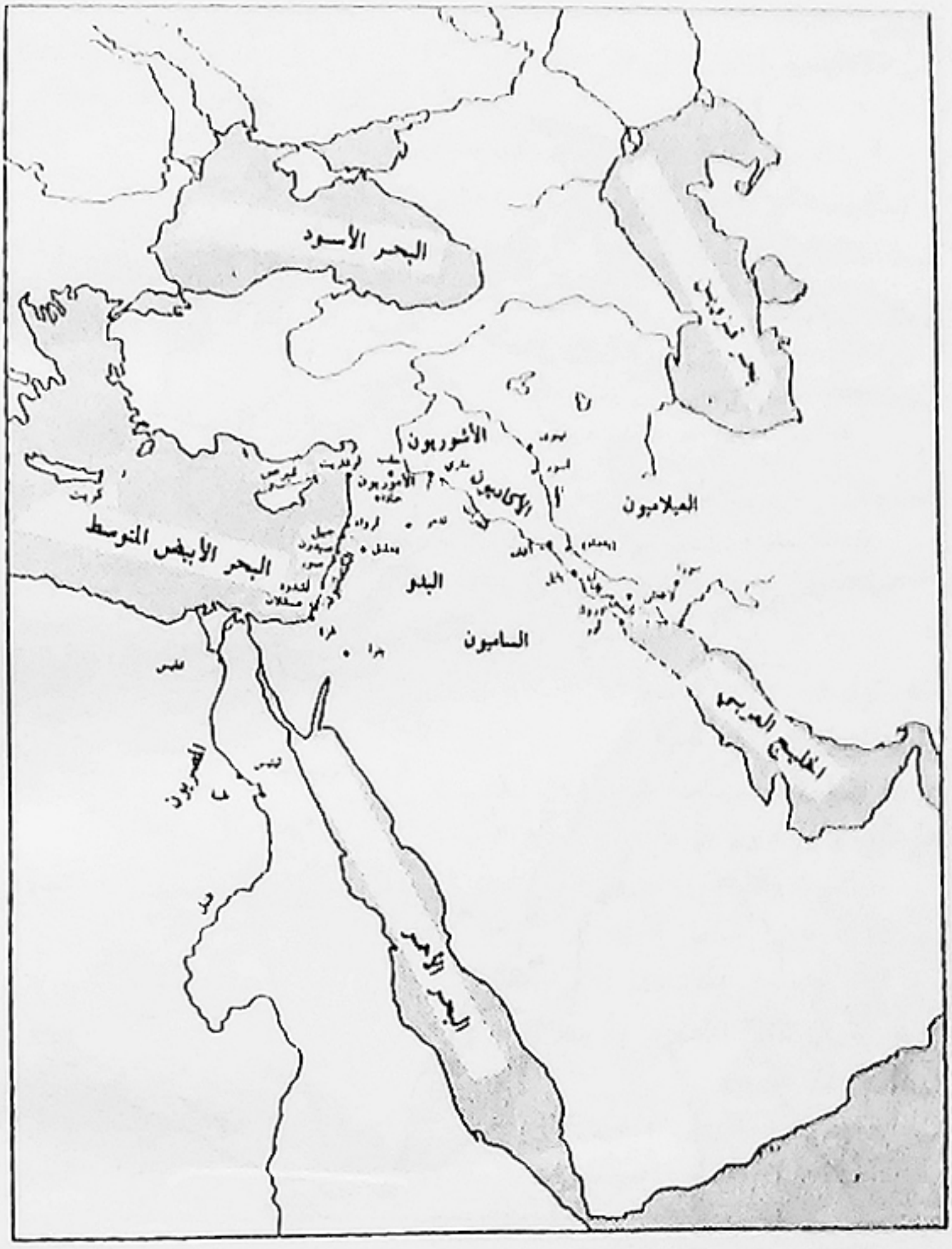

خارطة الشرق الأدنى من العام ٣٠٠٠ إلى العام ٢٠٠٠ق.م.

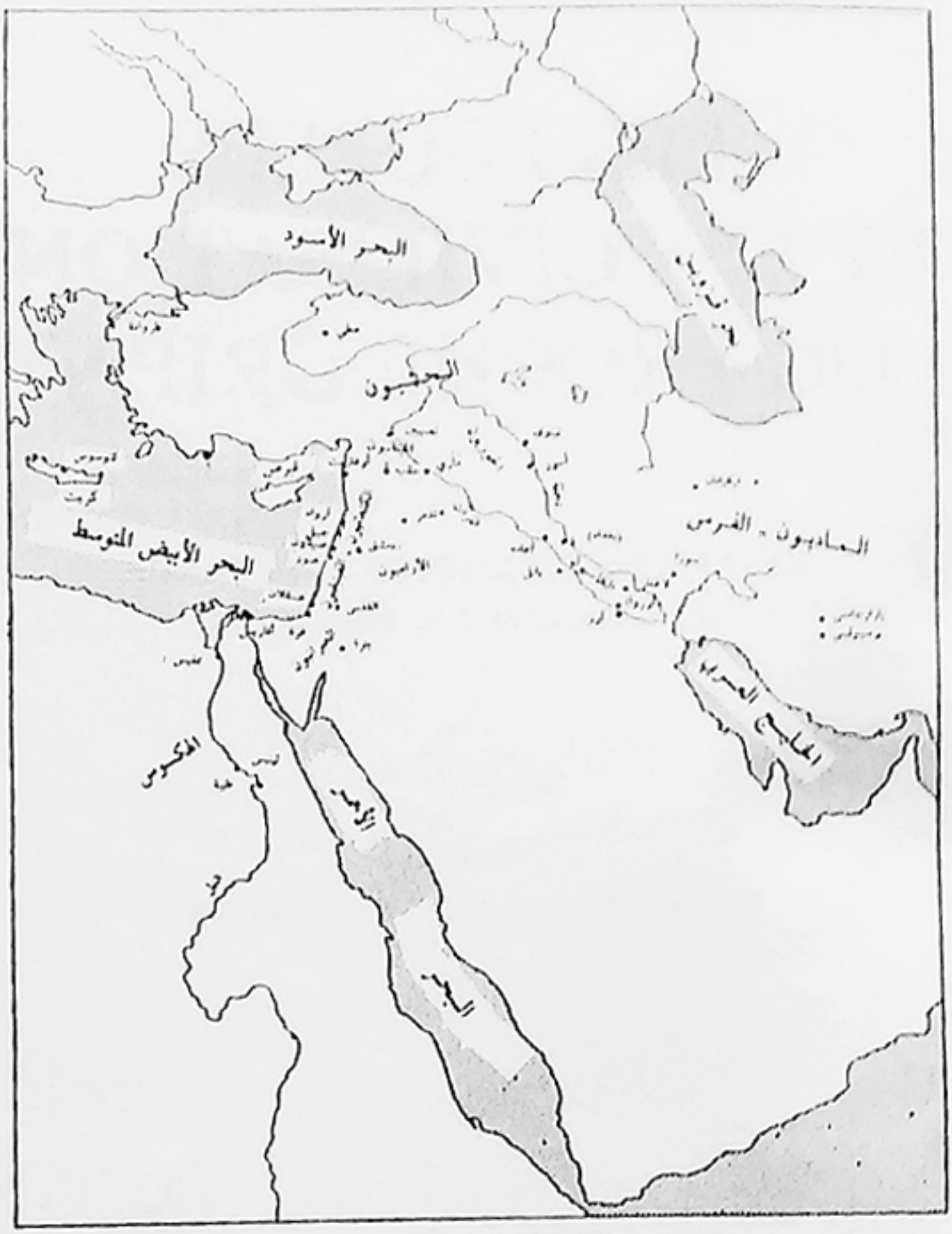

خارطة الشرق الأدنى من العام ٢٠٠٠ الى العام ١٥٠٠ق م.